

محمّد بن عبد الوهّاب

فرع من الصغیر

وقد من أقرى

الطبعة الاولى - سنة ١٩٣٩

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لِلْمَصَادِرُ الَّتِي أَلْهَمَتِ الْكِتَابَةَ

« رغبت الجامعة الأمريكية إلى عاتقة
من الكتاب المعاصرين أن يتحدث كل منهم
في المصادر التي ألهمته الكتابة . وقد كان
المؤلف أحد من رغبت إليهم الجامعة في ذلك .
وهذا نص حديثه الذي تحدث به في قاعة
المحاضرات مساء السبت ٥ مارس
سنة ١٩٣٨ ميلادية . »

إذا نظر الكاتبُ نظرةً سطحيةً إلى هذا السؤال : ما هي
المصادرُ التي ألهمتكَ الكتابة ؟ أحسنَّ فيه على الفور شيئاً من
التوريط ، فما كان أحرى « بالجامعة الأمريكية » أن تكشفَ
الستار عن حقيقة غرضها ، وتقولَ للكاتب في صراحة : حَدِّثْنَا
عن حياتك الأدبية ، وخبرنا عن رأيك في نفسك ا إذ أن
الكاتب وهو يتكلم عن المصادر التي ألهمته ، لا يتكلم في

الحقيقة إلا عن نفسه ، والحديثُ عن النفس مُشير التَّهَيُّبِ في الكاتب ، والامتعاض من السامع ، ومن ثَمَّ كانت الصعوبة . ولكننا لو نظرنا إلى السؤال نظرةً نافذةً ، وجدنا الإجابةَ سهلةً ميسورةً ؛ فالحق أن الكاتب إذ يدَّعي أنه أقل الناس تحدثاً عن نفسه ، نراه أكثرهم ثرثرةً وإفشاءً لأكتم أسرارهِ ؛ فكل ما يخطه/قله صحائفُ ناصعةٌ يترجم بها عن إحساساته وميوله ، ورغباتِ نفسه ودفائنها . والفرق الوحيد بين الحالتين أن الكاتب في عمله الأدبي يتحدثُ عن نفسه وهو لا يدري أنه يفعل ؛ أما في هذه الحالة ، أعني الإجابة على مثل هذا السؤال ، فهو يكتب وهو عالم أنه يكشف عن نفسه في تعمُّد . على أنه سيجد — بحكم هذه الحالة الواعية — مجالاً متسعاً أمامه للتضليل إذا أحب أن يضلُّ . أو بمعنى أشرف من ذلك ، إنه سيجد نفسه مضطراً لأن يكتب في داخل حدودٍ معينة يرسمها لنفسه . وعلى كل حال فإنني أرى من الشجاعة أن يتقدم الكاتبُ منا ويرفع الستر عن حقيقة نفسه بنفسه ، فذلك خير من أن يتولى أمره غيره ، و « بِيَدِي لَا يَبِيدُ عَمْرُو » !

والآن نحاول أن نحدد معنى [المصادر التي تلهم الكاتب] . إنها في الواقع لا تتعدى ثلاثة أمور أساسية : وراثته ، وبيئته ،

وحوادث خاصة تصادفه فتحوّل مجرى حياته من طريق إلى طريق . وإني أرى أن هذه الحوادث من أكبر العوامل في إظهار الأديب أو إخفائه ؛ فقد يرثُ الإنسانُ مؤهلات النبوغ ، ثم تساعده البيئة على إنماء هذه المؤهلات ، فلا يلبثُ أن تقاجئه حادثة مهمة في حياته تضطره إلى سلوك طريق غير الطريق الذي يسير فيه ؛ ومن ثمّ تَفُتّر مواهبه شيئاً فشيئاً حتى تستغرق في نوم عميق . وإذا أردنا التوسّع في التفسير ، قلنا : إن هذه العناصر الثلاثة تشمل مواهبَ الكاتب التي خُلِقَتْ معه ، وتهيأتُ له من طريق الوراثة ، فلا فضلَ له في وجودها ، مضافاً إليها مُخْتَلِفُ المؤثرات والحوادث التي اعترضتُ حياته فأثمتْ هذه المواهب ، أو أضعفتها ، وكان لها أثر في توجيهها نحو الهدف الذي رمت إليه .



عند ما أُلْتَمِتْ خلفي متكشفاً ماضى حياتي ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عمّلتُ في تكويني كاتباً :

الأول : والدي أحمد تيمور ، والثاني : شقيقي محمد ،
والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي ،
والرابع الأخير : مطالعاتي .

فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد
تعهدني منذ النشأة ، وحبب إليّ المطالعة والتأليف . وأخى هذباً
ذلك الحب وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي
عيّنت لي تلك الوجهة التي أترسّمها الآن في حياتي الأدبية .
ولدت في « درب سعادة » وقضيت طفولتي في منزل يشبه
القلعة المهذّمة ، ونشأت وأنا أرى لوالدي خزانة كتب قد
خصها بكامل عنايته ، ولم يبخل عليها لا بوقته ولا بماله .
فكنت أتمو وهي تنمو معي ، فتألفنا وتحاببنا ، ومن ثمّ تولّد
فيّ الغرام بالكتب ، فبدأت أجمع ما تيسر لي جمعه منها .
وخطر لوالدي أن يحفظنا — أنا وأخوتي — معلقة « امرئ القيس » ،
وكانت مهمة شاقة عليه وعلينا ؛ فقد كنا في سن لا نستطيع
معها فهم بيت واحد منها ، واستطعنا بعد أشهر استظهارها
جيداً . وعلم أستاذ اللغة العربية في المدرسة أنني أحفظ المعلقة ،
فطلب مني أن أعتلي المنصة ، وأنشد إخواني التلاميذ إياها ،
فأنشدتها ، فسُرّ الأستاذ ومنحني الدرجة كاملة . ولم أعد أوم
والدي على خطئه معنا .

ولما توفيت والدتي ، ثم جدتي لأبي ، عزّ عليّ والدي البقاء
في منزل « درب سعادة » . وكانت صحته قد اعتلت ، فنصح

له الأطباء بتبديل ذلك الوَكرِ الرَطْبِ ، واختيار مسكنِ خَلَوِيٍّ جافٍ ، فانتقلنا إلى « عين شمس » . هناك قضيتُ أطيبَ أيامِ صباي . كان منزلنا الجديد ريفياً صميماً ، يتوسط خمسة أقدنة مقسمةً حدائقَ ومزارعَ اعتنى والدي بتخطيطها وغرسها في ذوقِ حَسَنٍ ، فكنتُ أَلعبُ وأمرحُ مع أخَوَيْي في هذا المكانِ الفسيحِ وَفوقَ هوانا . وكانت حياتنا في هذه الفترة أقربَ إلى حياة السداجة الريفية ، فقد كان المنزل صغيراً مبنياً باللبن ، مؤثثاً في غير تَرَفٍ ، وكانت لنا خيولٌ نَجُوبٌ على ظهورها صحراء « كفر جاموس » وغيطان « المطرية » .

وكانت دارنا مَهْبِطاً لكثير من علماء العصر وفضلائه ، أذكر منهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ الشنقيطي الكبير ؛ وهما ممن تلقى والدي العلمَ عنهم .

أما الشيخ محمد عبده ، فكثيراً ما ركب القطار معنا من « عين شمس » إلى القاهرة . وما زالت صورته ماثلةً أمام عيني ، بوجهه الصَّبُوحِ ، ولحيته الجميلة ، وجلسته التي يحفُّ بها الوقار والجلال . فكنتُ أُصغِي إلى حديثه المتزن إصغاءً مسحوراً . وأما الشنقيطي الكبير ، فقد صَحِبْتُ مرّةً والدي إلى منزله — ولعلها مرّات — ولن أنسى في حياتي ذلك المنظرَ العجيبَ

الذي شاهدته هناك : شيخ أسمرٌ هزيل يتكلم العربية الفصيحة بلهجة مَغْرِبِيَّة ، يجلس متربعاً ، في وسط حجرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، فليس فيها إلا حصير وبعض وسائد منشورة هنا وهناك . وخلف الشيخ أسفار متراصة كأنها تلال ، وبجواره مِبْصَقَةٌ لا يستغنى عنها . ومن عجيب أمره أنه إذا ذُكِرَ اسم كتاب وأراد أن يُرِيَهُ زائرَه ، تحرك في مقعده حَرَكَة ، ثم مدَّ ذراعه ، فإذا بالكتاب في يده .

ولا يسعني أن أغفل في هذا المقام الإشارة إلى عمتي « السيدة عائشة التيمورية » الشاعرة ؛ فقد أدركتها في أخريات أيامها ، وإني لأذكرُ كيف كانوا يَدْخِلُونَنَا إليها في حجرتها الخاصة ، حيث تقضى شيخوختها . كانت تحتفلُ بنا وتغمرُّنا بعطفها وحنانها . إني لأتخيَّلُ الآنَ وهي جالسة على مقعدها الفسيح تترأى عليها المهابة ، فتتمثلُ لي صورة الملكة « فكتوريا » وهي متربعةٌ على عرشها . وكانت في ذلك الوقت بادنةً مترهلةً ، لا تترك مقعدها إلا في النادر ، يحيط بها سربٌ من القِطَطِ ، مُعْظَمُهُ جاوزَ عهد الشباب ودخل في سنِّ الكهولة ؛ ولكل قطة حَشِيَّةٌ تجلس عليها . ولما اشتدَّ عودى واستطعت أن أتذوقَ

الشعر وأفهمه ، قرأتُ الكثيرَ من شعرِها ، وحَفِظْتُ مرَّتينِها الشهيرةَ لابنتها ، وكان إعجابي بنظمها كبيراً .

كان والدي كثيراً ما يأخذنا إلى الريف ، فنمضي هناك إجازةَ الصيف . وكنت أحب الحياة فيه ؛ أقضي الوقت مع الفلاحين ، أحضرُ مجتمعاتهم ، وأستمع إلى أحاديثهم ، وأطرب لأغانهم ، وألعب بالكرة في بياديرهم . وعرفتُ هناك فيمن عرفتُ شخصيةً طريفةً أُعجبتُ بها ، هي شخصية « الشيخ جمعة » خفير « جرن الأوسية » .

وأذكر أن أولَ عملٍ أدبيّ عاجلته ، هو إنشائي بمعونة شقيق « محمد » صحيفةً خاصةً كنا نطبعها على « البالوطة » ونشر فيها أخبار المنزل والأصدقاء . وكان لنا مسرحٌ بيئتيُّ نقيمه بين حينٍ وحينٍ في أحد الأبهاء بالمنزل ، لُتمثلَ عليه مسرحياتٍ ساذجةً من تأليفنا ، كنا نضعها على غرار مسرحيات « سلامة حجازي » . وذَكَرنا ميلِي للمطالعة ، فأقبلتُ على الروايات أشبعُ منها رَغْبَتِي ، وكان جُهاً مترجماً مما لا قيمةَ فنيةَ له . وأهدى إلى والدي مجلداً ضخماً من « ألف ليلة » أصدرته مكتبة الهلال مهذباً ، في طبعة مصوّرة أنيقة ؛ فتعلقتُ به ، وطالعتُه بأكملها ، وكنت أجمعُ من

يَرْتَعِبُ فِي الاستماع من أهل المنزل ، وأعيد عليهم تلاوة ما قرأت ؛ ولعل السرّ في شغفي بألف ليلة في تلك الحِقْبَةِ هو مشابهتها « للحواديت » التي عشنا في جَوْهَا رَدْحًا من أيام الطفولة والصِّبَا ، فكأنني أعود بها إلى سذاجتي الأولى ؛ وكل منا يشعر بحنين عظيم إلى ذلك العهد . على أن الذي كان يُعْجِبُنَا من « ألف ليلة » ليس مجرد شبهها « بالحواديت » ، بل اتساع أُفُق الخيال فيها ، وِخْلَابَةُ حِوَادِثِهَا ؛ كل ذلك في جَوْ شَرِيفِي سَاحِر ، يَمُتُّ إلى نفوسنا بأوثق الصِّلات ؛ جَوْ طالما تمنينا أن نعيش فيه ، فنشعر أننا نغامر مع أبطاله ؛ نرتفع مع الرُّخِّ إلى السماء العليا ، ثم نَهْبِطُ إلى وادي الثعابين ، فغارة الموتى ، فمدينة النُّحَاس ؛ ثم نعود إلى الأهل والأحباب تُثَقِّلُنَا أَكْدَاس من الذهب !

و « ألف ليلة » هو أحد كتب قليلة تُكَوِّنُ التراث الضئيل لثقافتنا القصصية . وهذا التراث هو الذي يساعد القاصّ منا على إنماء موهبة التَّخَيُّلِ فيه . والخيال هو العامل الأساسي في التأليف القصصيّ ، وبدونه يكون القاصّ عاجزاً عن الخلق والابتكار ، فتخرج آثاره سطحية لا تزيد قيمتها على تدوين

الحوادث الجارية . والحق أن « ألف ليلة » مفخرة القصة في الأدب العربي ، وإن كان أصله ليس عربياً ، فقد جاءنا من طريق الفرس ، وهذا يعلّل لنا قوة الخيال فيه ؛ ثم تناولته بعض الأقلام في العصور العربية بالزيادة والتغيير . فالعربي الأصل لم يترك لنا تراثاً يُعتدُّ به في القصة ، وإن كان قد ضرب بسهم وافر في فنون الأدب الأخرى ، كالشعر والخطابة والترسل ؛ فقد كانت فكرته البدوية ، وحياته في بقاع قاحلة متشابهة قلّت فيها ألوان الطبيعة ، وقناعاته بالقليل الضئيل من أسباب العيش — من العوامل التي أبعده من إذكاء خياله ، وإطلاقه في تناول أعماق الحياة وخوافيها

وكان العصر الذي نعيش فيه قد تسلطت عليه النزعة المحافظة ، فكان الكاتب يرجع غالباً في كل ما يكتب إلى السلف الصالح ، يستعير صبغتهم في الكتابة ، وأساليبهم في التعبير . وكان حديث الخلافة الإسلامية يملأ الرؤوس ، فكنا نرضى عن طيب خاطر بتبعيتنا لدار الخلافة ، ولا نفكر في تأليف وحدة وطنية لنا . وإذا فكرنا في الوطنية لم تكن وطنيتنا إلا إحياء للإمبراطورية العربية القديمة . في ذلك الجوّ عشنا وقتاً ، لانهتدي في طريقنا

بغير هُدَى الماضي ، ولكننا أخذنا نسمع على أثرِ تتابع البعثات إلى ممالك أوروبا ، وازدياد أسباب الاتصال بيننا وبين العالم المتحضّر ؛ نعمةً جديدة كانت تدعو إلى التجديد في اللغة والأدب والسياسة والدين ؛ ولكنها قُوِّبَت من جمهرة المعاصرين بالاستنكار . وكان زعماء هذه النهضة : « سعد زغلول » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » ثم « لطفى السيد » وتلاميذه فيما بعد . فقد نبه « سعد » الأذهان إلى القومية المصرية ، وحددَها تحديداً أخرجها عن زخارفِ الخلافة التركية ، وأمانى الإمبراطورية العربية . ونفى « محمد عبده » عن الدين ما كان عالقاً به من الأوهام ، فأظهره على فطرته السّميحة . واقتحم « قاسم أمين » ميدان المرأة ، وأخذ يُمزّقُ النقاب عن وجهها ، ويُخرِجُها من قاعات « ألف ليلة » حيث يَعْبَقُ البخور ، إلى ميدانِ النور والحياة والعمل .

ولما تهذبَ ذوق في المطالعة أقبلتُ بشغفٍ على قراءة « المنفلوطى » فقد كانت نزعتُه الرومانسيّة الحلوة تملك على مشاعرى ، وأسلوبه السلس يسحرُنى . [وكل إنسان في أوجِ شبابه تطفئ عليه نزعَة الرومانسية والموسيقى ، فيصبح شاعراً ، ولو بغير قافية ؛ وقد يكون أيضاً شاعراً بلا لسان !]

ولما كان شقيقى الأكبر « إسماعيل » بِحُكْمِ مكانه من الأسرة قد اضطلع بزمامة المنزل ، وأخذ على عاتقه القيام بما تَفْرِضُهُ هذه الزعامة من اتجاه إلى العمليّات ومحافظة على تقاليد الأسرة وما يتبعها من رَسْمِيَّاتٍ — وجدتُ الفرصةَ سانِحَةً للتخلف في ذلك الميدان ، واستطعتُ أن أتحمك في أوقات فراغى إلى حد كبير ، أُصِرَّ فيها — وَفوقَ ميولى — بعيداً عن الحياة العمليّة ومظاهر الرسميات ، فأشبعْتُ ميلى إلى المطالعة .

وكان نصيبُ الشعرِ وافرًا في مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصةً شعر العاصرين . وكنتُ أفضلُ منه غالباً ما كان خياليّاً مُفَرِّقاً في الخيال . وكانت المدرسةُ الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللبنايون والسوريون فى المهجر ، قد بسطتْ نفوذها على الأدب المصرى ، فأخذتُ بها ، وشغفتُ كبير الشغفِ بزعيمها « جبران » ، ذلك الشاعر الرّمزيّ المفرق فى الرمزيّة . وكانت « الأجنحة المتكسّرة » أولَ كتابِ حِظِيّ منى بأوفى حبِّ وتقدير ، فتأثّرتُ به أولى كتاباتى ، وجلّها من الشعر المنشور ذى النزعة الرومانسية . وكان لجبران وجماعته مجلة تدعى « الفنون » ، قرأنا فيها حقّاً لوناً جديداً من الأدب ،

الأدب الذى يحاول أن يخرج عن نطاق التقليد فى الفكرة والقالب .
هذا الأدب كان يستمد وَحْيَهُ من الغرب ، وقد استحدث له
أسلوباً جديداً خرج فيه عن بعض قواعد اللغة ، ونَهَجَ المَنْهَجَ
الإفرنجى ، فاستعذَّبنا لظرافته وشدوذه عن المؤلف . ولا جدال
فى أن ذلك الأدب على عِلَّاتِهِ ، كان يحوى عُنْصَرَ التجديد ؛
فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جَرَى فى عروق أدبنا
المُحَافِظِ ، فَنَشِطَ ودَبَّتْ فيه حياة جديدة . وكان للقصة نصيبٌ
لا يُستهان به فى هذا الأدب « المتأمرک » . والقصة — حتى ذلك
المهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة فى
تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس . وأخذَ نُفُوزُ هذه المدرسة
يتضاءل على مَرِّ الأعوام ؛ إذ كَثُرَت البعث المصرية إلى أوروبا ،
فلما عاد أعضاؤها إلى مصر ، أخذوا مُبَشِّرُونَ بِمبادئ جديدة فى
كل فرع من فروع حياتنا ، ومنها الأدب . فكانت بداية
نهضة جديدة ، نهضة لها خطرهما . وكنا على أبواب الحرب ،
وعاد شقيقى « محمد » من أوروبا مُحمَّلاً بشتى الآراء الجريئة .
كان يتحدث بها إلىَّ ، فاستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت :
عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب .

هذه الآراء كانت وليدة نزعة ثورية قوامها جحود القديم .
ولكن حديثها أخذت تَهْدأُ على توالى الأيام ، ومن ثم اتخذت
طريقها الطبيعي في التطور . والأمر الذي كان يشغل فكر أخى ،
ويرغب في تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى
وَحْيَهُ من دَخِيلَةِ نفوسنا ، وصميم بَيْنَتِنَا .

ويحسنُ هنا أن أذكرَ حادثاً مُهِمّاً أعتقد أنه كان نقطة
تحول في حياتى الأدبية ، إذ وَجَّهَ تَجْرَى هذه الحياة وَجْهَةً
معيّنة . أُصبت بمرض « التيفويد » - وكنت إذ ذاك في العشرين
من عمرى - وكانت وطأة المرض شديدة علىّ ، فلزمتُ الفراشَ
ثلاثة أشهر قضيتها في ألوان شتى من التفكير ، وأخلاطٍ من
الأحلام ؛ واستطعت أن أهضم الكثير من الآراء التى تلقيتها
من أخى ، أو استمددتها مما قرأته من الكتب . فلما أبلتُ
من مَرَضِي ، وأردتُ استئناف دراستى العالية - وقد كنتُ
بدأتها فعلاً - حال دون ذلك ضعفُ بِنْتِي ، فعشتُ
فترة من الزمن متعطّلاً ، وأطلقتُ لِنَفْسِي عِنَانَ الحرية
- شيئاً ما - فخرجتُ عن الكثير مما كان يُقَيِّدُنِي من
تَحَفُّظَاتِ الأسرة . وشعرتُ باشتداد مَيْلِي للأدب ، فرسّمتُ له

دراسةً شبهَ مُنظَّمة ، وَخَصَّصْتُ لَهُ وَقْتًا مَعِيْنًا مِنْ وَقْتِي ؛
فَكَأَنِّي قَدْ أَرَدْتُ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ اسْتِكْمَالَ النِّقْصِ الَّذِي لِحَقْنِي
مِنْ انْقِطَاعِ دِرَاسَتِي الْعَلِيَا . فِيمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ حَادِثَ الْمَرَضِ
كَانَ بَدَايَةَ طُورٍ جَدِيدٍ فِي حَيَاتِي الْأَدْبِيَّةِ ؛ نَقَلْنِي مِنْ دُورِ
التَّرَدُّدِ إِلَى دُورِ الْيَقِينِ ، وَمِنْ دُورِ الْإِلْمَامِ وَالْمُوَادَّةِ فِي التَّحْصِيلِ
إِلَى دُورِ الْجَدِّ فِيهِ وَالِاسْتِعَابِ . وَمَا إِنْ مَضَيْتُ فِي ذَلِكَ
حَتَّى كَانَ شَقِيْقِي قَدْ اقْتَحَمَ الْمَسْرَحَ ، إِذْ كَانَ مِيْدَانَهُ الْأَكْبَرَ ؛
فَأَلَّفَ فِيهِ بِالْعَامِيَّةِ ، وَعَالَجَ مَوْضُوعَاتٍ مُسْتَخْلَصَةً مِنْ حَيَاتِنَا
الْمِصْرِيَّةِ فِي فَنِّ جَدِيدٍ ، اِمْتَاَزَ بِوَصْفِ مُبْدَعٍ ، وَتَحْلِيلِ دَقِيْقٍ ،
وَأَسْلُوبِ جَذَابٍ . وَمَارَسَ كِتَابَةَ الْقِصَّةِ ، فَاسْتَحْدِثَ طَرِيقَةً تَكَادُ
تَكُوْنُ غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ فِي أَدْبِنَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَنَظَمَ الشُّعْرَ فَتَرَجَمَ
فِيهِ عَنِ إِحْسَاسِهِ الْمُرْهَفِ ، وَأَلَّفَ فِي النِّقْدِ الْمَسْرُوحِيِّ فَاِبْتَدَعَ
لُونًا جَدِيدًا مَرِحًا فِيهِ هَزْلٌ وَفِيهِ جِدٌّ . وَعَلَى الْجُمْلَةِ كَانَ أَدَبُ
« مُحَمَّدِ تَيْمُورٍ » أَدْبًا مَبْتَكِرًا مَادَتَهُ الْحَيَاةَ الْمِصْرِيَّةَ وَالنَّفْسَ الْمِصْرِيَّةَ .
هَذَا عَلَى حِينِ أَنْ وَالِدِي « أَحْمَدُ تَيْمُورٍ » كَانَ يَعْمَلُ وَيُوَلِّفُ
فِي مِيْدَانِ آخَرَ — مِيْدَانِ اللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ وَالأَدَبِ الْقَدِيمِ .
لَا يَبْرَحُ خِزَانَتَهُ إِلَّا لِمَا مَا . يَعِيشُ فِي جَوْءِ الْمَعْجَمَاتِ وَحَوَادِثِ

العهد الغابر ، وقد يقضى الساعاتِ الطوالِ بل الأيامَ في الكشف
عن لفظ أو تحقيق خبر .

في ذلك الوقت كنت أستنير في مطالعاتي بهداية شقيقى ،
فَنَصَحَ لى فيما نَصَحَ بأن أُطالع « حديث عيسى بن هشام »
للمويلحى ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، فرأيت فيها
لوناً يختلفُ عن اللونِ الرمزي والرومانسى الذى كنت غارقاً
فيه ؛ لوناً واقعيًا يَهْبِطُ بالقارئ من سماء الخيال العليا — حيث
يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب — إلى الأرض التى نحيا
عليها ، حيث نرى الناس بشراً مثلنا على فطرتهم التى خُلِقُوا عليها .
و « حديث عيسى بن هشام » يعدُّ فى نظرى المرحلة الثانية
لل قصة فى الأدب العربى بعد « ألف ليلة » ؛ فقد نما فيه مؤلفه
مَنَحَى عصرياً ، تخياله واسع ، وسرده مُمتِع لا تخلو شخصياته
من إحكام فى الوضع . وهو وإن كان قد تقيَّدَ بعضَ التقيُّدِ
بالمقامات فى الأسلوب والتأليف ، فقد امتاز بأنه أول محاولة
ناجحة لتمصير الأدب وصَبْغُه باللونِ المحلّى الزاهى مع سُموه عن
الواقعية الساذجة .

أما رواية « زينب » فهى فيما أرى تعدُّ أولَ عملٍ أدبى

في القصة المصرية ، يتضمّن العناصر الأساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم . وامتدح لي شقيقى غير مرة « موبسّان » الكاتب الأُقصوصىّ الفرنسىّ ، فبدأتُ أطلّعه ؛ وما كدتُ أقرأ له مجموعة حتى فُتنتُ به ، وتابعتُ قراءتي إياه في شغفٍ عظيم . واتسعتُ مطالعاتي فيما بعد في القصصِ الأوربيّ وتَشعّبتُ ، ولكنني حتى اليوم ما زلتُ محتفظاً لموبسّان بالمكان الأول في نفسي ، فهو عندي زعيم الأُقصوصة الأكبر . وفن « موبسّان » في نظري فن كامل توفّرتُ فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية ، من حيث عرّضُ الموضوع ومعالجته ، وتحليلُ شخصياته ، وتسلسلُ الحوادث وخواتمها ؛ كل ذلك في وضوح واتزان . ولا أذكر أني قرأت له قطعة لم تهزّني .

ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى القصصِ الروسىّ ، وقرأتُ « لتشيخوف » و « تور جنيف » ، ومن مائلهما ؛ فرأيت تأثير « موبسّان » واضحاً في بعض إنتاجهم . ويمتاز القصص الروسىّ بمنصرى الصدق والبساطة ، فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يعرّضها في غير كُلفة ولا زُخرف ، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من هذه

الأقاصيص ، فلا يرى فيها موضوعاً تاماً له بدايته ونهايته ، بل يرى صفحةً ساذجةً من الحياة ، ولكن تترأى له خلف هذه السذاجة الظاهرة صفحات من صميم المأسى البشرية . لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست في حوادثها الثائرة الفاجعة ، ولا في مشوّقاتها المبتدلة التي يتعمد القاصّ الضعيف أن يجتلبها ليسترّ ضعفه وراءها ؛ بل إن قوتها الحقة في بساطتها وصدقها ، وصوغها في قالب فني رفيع .

وكانت الحربُ قد انتهت ، وباتتها ثارتُ فينا نزعةُ القومية وأدركنا صلاح المبادئ التي نادى بها « سعد زغلول » وصحابه ، واتسع نطاقُ « المصرية » فطنى على كلِّ شيء في حياتنا ، سواء أكان في السياسة والاقتصاد أم في الأدب والاجتماع .

أما من الناحية السياسية ، فقد أدركنا كيف أن السولة العثمانية التي كنا ننظر إليها زعيمة ومنقذة ، قد جعلت تنهار وينكشف لنا ضعفها . فعادت إلينا الثقةُ بنفوسنا ، ورأينا من « مبادئ ولسن » الأربعة عشر ما يحقق لنا حياةً مستقلة سعيدة لا تبعيةً فيها ولا خضوع ، فاعتزمنا أن نعمل لهذا الاستقلال ، معتمدين في ذلك على أنفسنا وحدنا .

وأما من ناحية الاقتصاد فقد دفعنا الحاجة إلى سدِّ الثَّغْرَةِ
التي أوسَعَهَا الحرب في وارداتنا الأجنبيَّة ؛ فنَشِطتْ بعض
الصناعات الوطنيَّة وازدهرتْ ، وبدأنا نُحْسِنُ لَذَّةَ الفوزِ في ذلك
المضمار ، فطالبنا بالمزيد ، وقد تأكَّد لنا أن في مقدورنا السيطرةَ
على صناعتنا إذا توافرت لدينا الجهود الصادقة ؛ ومن ثم تأسَّس
بنك مصر ، وأخذت شركاته تولد ويشتدُّ عودها .

أما من الناحية الاجتماعيَّة ، فقد شاهدنا كيف أن الحرب في أوروبا
قد قلبتِ الأوضاع ، وأنشأتْ نُظْمًا وأوضاعًا فرضتها فرض المتحكِّم
الغلاب . فلحِقنا منها الشيء الكثير ، ورأينا أن الانقلاب الذي
كان يُقدَّرُ له « قاسم أمين » عشراتِ السنين ، يبيِّم في أعوام
لا تتجاوز عددَ أصابع اليد .

أما الأدب فقد اصطبغ باللون المحلِّي الصارخ ، حتى أغانينا
الشعبية غلبتْ عليها هذه الصبغة ، ورأينا أنفسنا نتَّجِه نحو الواقع ،
فأصبحنا عمليِّين بعد أن كنا شعراء خياليِّين . وشاع المسرح المحلِّي
وبخاصة الهزليُّ منه ، وانتشر الاقتباس ، وبدأ الابتكار ، على
حين تضاءلت الترجمة . في هذا الجو كتب « محمد تيمور »
أقاصيصه : « ماتراه العيون » وقد نما فيها نحو المذهب الواقعيِّ ،

وصورَ فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصرية وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جمعت بين فن مبتكر وأسلوب رشيق سهل ، فأعجبتُ بها إعجاباً دعاني إلى أن أولف على غرارها ، فكتبتُ باكورتى فى القصة : « الشيخ جمعة » . وهى قطعة وصفيّة خفير من خفاء الضياع ، ثم أزدقْتُها بأقصوصة تُسمّى : « يحفظ بالبوسطة » . وكنت قد أهملتُ الشعر المنشور ، فاندفعتُ أكتبُ مترسماً فى كتابتى المذهب الواقعى ، وذلك بتأثير الجوّ الجديد الذى نعيش فيه ، وما كنت أقرؤه من قصص على هذا المذهب ، وكنت لا أحفلُ بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع .

وفجعتى القدر وقتئذ فى شقيقى « محمد » وهو فى ميعه صباه ، وشرخ شبابه ، وتألقت أمانيه . وشعرتُ بعد موته بانهيار أمله الكبير فى إنشاء أدب مصرى جديد ، كثيراً ما كان يحدثنى عنه فى حماس ويقين . ودَهمني اليأس ، ورأيتُ نفسى أضعف من أن أخلفه فيما كان يبشّره ، فنخلدتُ إلى السكينة وقد توقعتُ الفشل وانقضت الأيام ، وبدأتُ عجة الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لا يعينها من أمور العالم إلا استكمال دورتها ، فأخذتُ الجروحُ تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الروح فى الجسد .

ورأيتُ نفسي قد نَشِطْتُ للعمل ، واستجمعتُ من ضعفِي
قوة تَقَدَّمْتُ بها في ميدان التَّأليف ، وقد انطلقتُ أَنْفُسُ عني
اليأس ، وأُفْصِي شبح الفشل ، معتمداً على نفسي ، مهتدياً بهدْيِ
شقيقِي الراحل . فكنتُ أَعْمَلُ وكأني مندفع بباعث من
« واعيتي الباطنة » إلى استكمال ما كانت تصبو نفس شقيقِي
إليه لو أُتِيحتْ له الحياة . وكنتُ أَحْسُ أني بهذا العمل أَرْضِي
رُوحَ شقيقِي ، وأُقْرِمُهَا واجب التَّحِيَّة والإجلال .

وما إنْ أَقْبَلَ عام ١٩٢٥ ميلادية حتى رأيتُ أنه تَجَمَّعَ
عندي مادة من القصص يَصِحُّ إظهارها في كتاب . فطبعْتُ :
« الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم أَرَدَفْتُهُ بغيره .

ولما هدأتْ نزعَةُ المِصرِيَّةِ الحادَّةِ بألوانها المحليَّة الصارخة ،
واستقرَّتْ الأمور في نِصَابِهَا الطَّبِيعِيَّةِ ؛ تطورتْ نظرتي إلى
الأدب ، فكانت في طورها الجديد أوسعَ وأعمق .

وسافرتُ في تلك الفترة إلى أوروبا ، ومكثتُ بها حيناً يزيد
على العامين قضيتُ معظمه في سويسرا ؛ ففترغتُ للقراءة ،
واتصلتُ بالأدب الأوربي الحديث أقربَ اتصال . وطالعتني
أثناء إقامتي هناك مَرَّئِيَّاتٌ ومناظر هزَّتْ نفسي ، وتغلغلَّتْ في

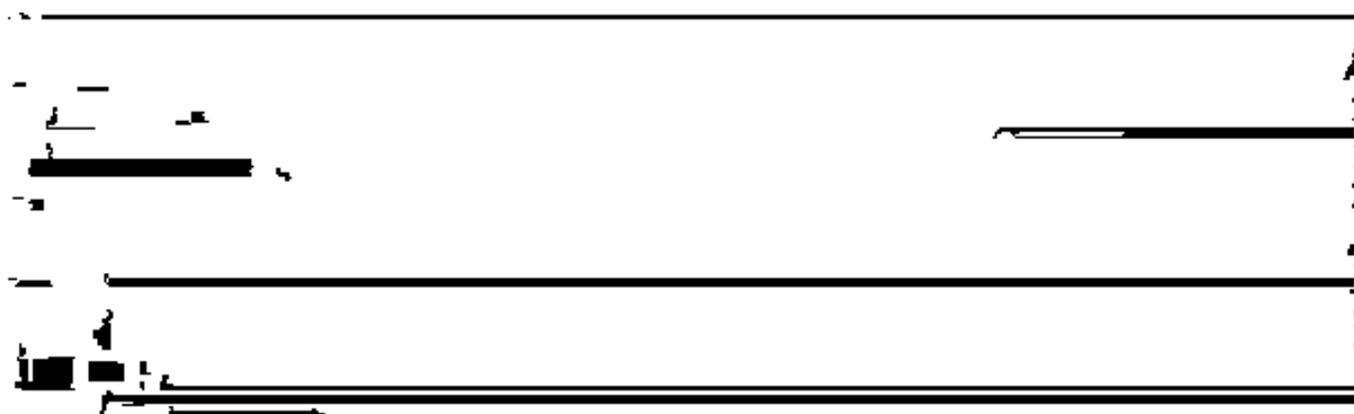
صميم قلبي . كما أن خِبرتي بالحياة ، ومعرفتي لها قد اتسعت
وتنوّعت ، فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر
لا يُنكر في تطوّر تفكيري ، ورأيتُ على ضوء مطالعاتي
الجديدة وفهمي لنظريات الأدب العالی أن اللون المحلى ليس
كلّ شيء بل هو بعض الشيء ؛ (وما الأدب الكبير إلا أن
يؤلّي الإنسان وجهه شطر النفس البشرية) . فحولتُ اتجاهي نحو
هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً .
وإني الآن أعتقد أن الأديب يجب ألا يُقيّد نفسه في التأليف
بمذهب يتمدّد به ؛ فالأدب ميدان فسيح ، على الكاتب أن
يمرّح فيه طليقاً . فليُرسل روحه على سجيّتها . فما المذاهب
الأدبية إلا من صنّع النقاد لا من صنّع الأدباء ؛ وضعوها
ليُنظّموا بها فَنهم ويُخضعوه لقوانين منطقيّة .

ولا أستطيع أن أختم هذه العجالة قبل أن أتحدث عن
أمرٍ أضعه في مقدمة الأمور التي أثّرت وما زالت تؤثّر في
تجرّبي حياتي ، أعني به صحّتي . فقد تألّبت على الأمراض منذ
الطفولة ؛ وأذكر بالخير طبيبي الأول ، فقد كان يجمع بين الطب
والطبيّة ، أي بين العلم والصدّاقة ، فلم يكن يداوى الجسم

وحده ، بل يدأوى معه النفس . كان طبيبُ الطفولة هذا رجلاً نحيفاً ذا طربوش أفسس ووجه أسمر مهزول . ولا أدري لماذا يَخْطُرُ بيالي ، كلما شاهدتُ صورة « دون كيشوت » . هذا الطبيب أو بالأحرى هذا الصديق ، كان يحضُرُ لزيارتنا ويمكثُ معنا الساعات الطوالَ يُجرِّعُنَا الدواءَ وَيَتَجَرَّعُهُ معنا ، وهو يروى لنا القصص والنوادر .

منذ الصغر والعللُ تتردُّ عليّ حتى ألفتها الآن ، وأصبحتُ غيرَ غريبةٍ عني . منذ سنين طويلة وأنا في رقابةِ الطبِّ في ما كلى ومشرَّبِي ، وفي نومي ويقظتي . سنَّ لي هذا الجبارُ قوانين لا أستطيع الخروجَ عليها ، فأنا أعيش من مرضى في قفص ، أنظرُ إلى الأصحاء من الناس يستمتعون بكامل حريتهم ، فأغبطهم وتنالني حسرةٌ أليمة .

وهكذا كنتُ أحسُّ في أعماق نفسي بنقصٍ يمجُزُّني عن الاستمتاع بما ينعمُ به غيري ، هذا النقص دفعني وما زال يدفعني إلى أن أستكمل في الخيال ما عجزتُ عن إثباته في الواقع . ومع ضعف صحتي ، وما نالني من مرض ، أجدُ نفسي قد تخَطَّيتُ الأربعين وما زلتُ حياً أرزق ، فأعجبُ لذلك وأقول : « لِسَهْ لَكَ عُمْرٌ ! »



فرع — صغير

كنتُ على موعدٍ مع « الخواجا أرداش » بفندق « شپرد » ،
لإنجاز مهمةٍ كلفني إياها والدي . وكان والدي من هواة الآثار
يجمعُ منها كلَّ طريف نادر ، فكثيراً ما كلفني أمثال هذه المهمة
عند المشهورين من تجار العاديات ، ولم يكن يفوتني على حداثة
سني أن أقومَ بعملٍ في نجاح .

دخلتُ الفندق ، وقصدتُ من فوري البهو الفرعوني ،
فوجدتُ « الخواجا أرداش » منتحياً جانباً منه يتحدث إلى سيدة ،
فتقدمتُ نحوه وصاغتُه ، فقال على الأثر :

من حُسنِ الاتفاق أن تكون « مسز كلارك » معي في
هذه الساعة . . !

وأشار إلى السيِّدة بابتسام ، ثم تابعَ قوله :

إنها من هواة الآثار ، وإني أقدمها لتكونَ حَكماً في تقدير
التُحفة التي يريد والدك شراءها .

فلم يُعجبني كلامه ، إذ كان فيه معنى التوريط . على أني نظرتُ
إلى السيدة مبتسماً في تلطُّف . وقدم الرجلُ كلاً منا للآخر ،

ثم جلسنا إلى إحدى الموائد الخالية ، وبدأنا نعالج الحديث في شأن هذه التحفة .

وكانت « مسز كلارك » سيدة في أوج بهائها توشك أن تنضمَّ العِقدَ الثالثَ من عمرها ، حلوةَ القَسِمَاتِ ، ذاتَ جمالٍ أمريكيٍّ من الطراز الرفيع . لها عينان زرقاوان مُمْنَاهِيَانِ في الصفاء ، وبشرةٌ بيضاء تخالطها سُمرَةٌ خفيفةٌ تزيدها جاذبيَّةً . عذبةَ الحديث ، في خيالها جُوحٌ وُغْرَابَةٌ .

لم أمكثُ طويلاً معها ، ولكن الوقتَ الذي أمضَيْتُهُ بجانبها كان على قِصْرِهِ مُمْتِعاً . وَأَنْجَزْتُ مَهْمَتِي مع « الخواجَا أَرْدَاشِ » مرتضياً حكمَ « مسز كلارك » . وعند ما أردتُ الانصرافَ ، ومددتُ يدي مودِّعاً ، قالت لي في ابتسامةٍ مُشْرِقَةٍ :

هل لك في تناولِ الشاي معي غداً ؟

فأجبتُ بلا تَرَدُّدٍ :

بكل سرور !!

— إذن سأنتظرك في فندق « مينا هاوس » حيثُ أقيم . وأيقنتُ أنها ستدعو معي « الخواجَا أَرْدَاشِ » ، ولكنني دَهِشْتُ إذ لم تفعل ، واقتصرْتُ على منحِهِ يدها ليقبَلَهَا ، ثم شيعته بابتسامةٍ ظريفة .

وخرجتُ من الفندق وأنا أفكرُ في هذه الدعوة . لقد كانتِ الأولى من نوعها ، فلم يسبقُ أن التقيتُ منفرداً بسيدة في مثل هذه الدعوة الخاصة . ولكنني كنتُ في طَوِيَّةِ نفسي مغتبطاً . وقد سهَّلَ على الأمرِ غيابُ والدي عن العاصمة في ذلك الحين .

وفي اليوم التالي ذهبتُ في الموعد المحدود إلى فندق « مينا هاوس » القائم بجوار الأهرام ، وأعطيتُ بطاقتي للبواب ، فسُرَّعَانَ ما عاد إلى يخبرني بأن السيدة تنتظرنِي في حُجْرَتِهَا . وأمر واحداً من غلمانِ الفندق أن يصحبَنِي إليها .

أقبلتُ عليها ، فوجدتها جالسةً على مقعد طويل ، وببيدها كتابٌ ذو جِلْدَةٍ ثمينة مبتكرة تنظر فيه . فما إن رأته حتى قامتُ إلى ، واستقبلتني استقبال صديق تألفه من قديم . ووقفتُ مأخوذاً أتلفتُ حولي أدقُّقُ النظر في شكل هذه الحجرة العجيبة ومحتوياتها . كانت متسعةً عاليةً السقف ، نعمة العُمد ، يسودها جوٌّ أشبه بظلمةِ العسَقِ يغلب عليه لون البنفسج . وكان كل شيء فيها على النمطِ الفرعوني ، مصنوعاً في دقة وطرافة وسلامة ذوق .

وهمتُ قائلاً :

أفي هيكل نحن ؟

وسمعتها تُجيبني :

ولم لا ؟ !

ومشتُ بي إلى النافذة حيث الستائر الحريرية ذات اللون
البنفسجي مُسدلة ، فلمحتُ خلفها شبح الأهرام جاثماً في
الصحراء في وضع لم أره عليه من قبل . كان ينبعث منه جمالُ
الفتوةِ والصبا ، وجلالُ القوة والعظمة . فرأيتني أمام مصرَ في
عزّها القديم الخالد !

وعُدتُ ببصري أُسرحه فيما حولى من أثار ورياش ، وقلتُ :
أفي الفندق حَجَرٍ أُخرى على غرارِ هذه الحجرة ؟
— كلا . أنا التي أثنتُها وزينتها بنفسى .

وكانت « مسز كلارك » ترتدى ثوباً فرعونياً غايةً في البساطة
والذوق الجميل ، فقلتُ لها :

أتحبين مصر الفرعونية كل هذا الحب ؟

— إني أعبتها !

ووقفتُ وإياها برهة بجوار النافذة نرقب الهرم الأكبر ،

يتخاذل رويداً على سطحه نور الشمس الفاتر . ثم سرنا صامتتين
إلى مائدة الشاي ، وكانت الأكوابُ والأباريقُ والأواني من
الفخار ، مصنوعة على الطراز المصري القديم ، منقوشاً عليها بعض
رسوم ساذجة من رسوم ذلك العهد . وكانت « مسز كلارك »
تتفحصني بنظراتها العميقة تفحصاً ألقني . ولم تلبث أن لاحظتُ
ما بدا عليّ ، فابتسمتُ ولاحظتُ يدي ، وقالتُ :

إن هناك شهاً قوياً بينك وبين « توت عنخ آمون » .

فخلقتُ فيها مدهوشاً ، وأتمتُ هي قولها :

كأنكما توءمان ، انظر . . .

وتناولتِ الكتابَ ذا الجلدة الثمينة وفتحتهُ ، ثم أشارتُ إلى
صورة ملونةٍ للملك الشاب . فجعلتُ أنعم فيها النظر . ولأول مرة
في حياتي تنبتهُ إلى هذه الحقيقة الغريبة ، وكنتُ قد رأيتُ غير
مرةٍ تلك الصورة ، فلم يجتذبُ ملاحظتي منها شيء . وسمعتها تقول :

لا يعوزك غير التاج والصولجان !

فبدرتُ مني ضحكةٌ خاطفة ، أما هي فتابعتُ كلامها ، وعيونها

تلمع اهتماماً :

وسنكما متماثلتان ، ألسن في السابعة عشرة ؟

— نعم .

... واثنتيننا نشرب الشاي ، وأخذت « مسز كلارك »
تتكلم بصوتها المتنمّم المشبّع بالأحلام ، قالت :
إني أحب بلادك حبّ عبادة ، وكنت أحلمُ بزيارتها ولما
أزلُ طفلة ... وتاريخها العظيم ! لقد استوعبته دراسةً وتمحيصاً .
وكنت كلما تعمّقتُ فيه تكشّفتُ لي كنوز جديدة ، وأى كنوز ؟ !
إنها عوالم بأسرها ، يخطئُ من يقول إنها اندثرت ولم يبق منها
شيء . إن الماضي الرائع يملأُ جو هذا البلد ، يملؤه كله ، وإني
لأشعر به يغمرنى ، يتصل بروحي ، ويمتزج بدمي .

وصمتتُ برهة ، ثم قالت وهي تُحدّق في عيوني تحديقاً غريباً :
لك عيون بديعة ! كلون ماء النيل عند الفيضان ، تحمل
في أعماقها أسرار الماضي السحيق .

وناولتني قدحاً من الشاي . فأخذتهُ ويدي ترتجف ، وبدأتُ
خفقات قلبي تُزعجني ، وأردتُ أن أُحوّل مجرى الحديث ، فقلتُ :
أهذه أولُ مرة تزورين فيها مصر ؟

— نعم هي أول زيارة ، وستكون آخر زيارة أيضاً !
فقلتُ مدهوشاً :

لِمَ ، وقد خبّرتني اللحظة أنك مشغوفةٌ بها ؟

— من أجل هذا أريد ألا أحضرها مرة أخرى !

وصممتُ برهةً وهي تحدِّقُ في عمودٍ ضخْمٍ يحملُ صورةً كبيرةً
لملك فرعونى ، بيده حربةٌ يهْجُمُ بها على حيوانٍ مفترسٍ ، ثم قالت :
إننى أستعذب الألم فى سبيل الحب ، ففى ذلك العذاب خلود
للحب وتقديس ؛ أما الاستمتاع به إلى النهاية فقضاء عليه ،
إذ يُحيله إلى شىءٍ تافهٍ مبتذلٍ كرهه .

وكنْتُ أصغى لحديثها كلَّ الإصغاء ، وقدمتُ لى صَحْفَةَ
القطائر ، فأخذتُ منها واحدةً ، واستأنفتُ حديثها قائلةً :

اسمع . لقد أُحببتُ عند ما كنتُ فى سنِّك شابًّا جميلًا ،
بارعَ الجمال . وأحبنى هو كذلك ، وتزوجنا . وعشنا برهةً من
الزمن ونحن نستمتع ببلدة الحبِّ غافلين عن كل شىءٍ حولنا .
لقد كان حبًّا جنونياً لا أظنُّ أحداً غيرنا قد عرفه واستمتع به
على هذا النحو ، ولم يكن يَسْنَحُ لخاطرى أن مثل هذا الحبِّ
يعتوره يوماً ما أقلُّ نقصٍ أو تغيير . . . ولكن . . .

— ماذا ؟

— . . . لقد اعتصرنا البرققالة ، وجعلنا نرتوى من عصيرها ،

فلما لم يبقَ أمامنا غير القشرة المرّة ، أكلنا منها حتى أصابنا
القشيان !

وسارتُ بي في الحجرة ويدها في يدي ، وجعلتُ تطوف ،
هَيِّنَةَ الخُطَا ، وتقف مرةً بعد مرةٍ أمام النقوش والصور تسرد
لي حديثها في صوت خافت عَذْبٌ ؛ فكأنما كانت تُنشدني
أرقَّ الأشعار وقلتُ كالهامس :

وَدِدْتُ لو عشتُ في ذلك العهد الغابر ، أستمع بهذا
الماضي الرائع !

فنظرتُ إلى مُسَبِّلةٍ جفنيها شيئاً ، وقالت :

ليس هناك ما يسمَّى الماضي أو المستقبل . الزمن طوغُّ يمينا ،
وفي طوقنا أن نعيش في « العهد » الذي نريد .

ثم أدنتُ وجهها من وجهي ، وطبعت علي في قبلة شَيْقَةَ ،
ثم استأنفتُ سَيْرَها وهي ممسكةٌ بيدي ، وعادتُ تشرح لي معاني
الرسوم والنقوش !

تمتُ هذه القبلةُ على أهونِ حال ، وسلكتُ طريقاً طبيعياً
لم يُبْرِأَ أَيْةَ دهشة . فما غَيَّرْتُ شيئاً من برنامِجِ طوافنا
في هذا المعبد المقدس ، بل لقد عدَدناها جزءاً من هذا
البرنامِجِ .

وبعد أن أمتعنا النظر بكل شيء ، مضينا إلى المتكا الوثير ،
فجلسنا صامتين . وأسندتُ رأسي إلى ظهر المتكا ، وتنازعتني
تأملاتي . كل شيء حولي قد تبدل . لقد انشقت الرمال فغاص
في جوفها فندق « مينا هاوس » وحملنا « أبو الهول » على
ظهره ، وانطلق بنا يمدو طاويا فيافي الزمن طيا ، عائداً إلى مصر
الفرعونية رأيت العابد قائمة تشمخ بهاماتها ؛ والناس
خضع في أهبائها ، وأناشيد الكهنة تترجج بالبحور ، فإذا بها
نعماتٍ عطرية ساحرة . . .

وامتدت يدي إلى يدها في سكون ، وأحاط كلُّ منا رفيقه
بذراعه ، ثم تقارب رأسانا ، والتقينا في قبلة عميقة ، وعناقٍ
طويل . . . !

. . . . واستيقظتُ من هذا الحلم الرائع ، وقد تغفل سحر هذه
المرأة في سويداء قلبي ، واستبدت بمشاعري ، حتى لا أملك أن
ألفت بصرى عنها .

وكانت الخجرة مظلمة لا يُنيرها إلا بصيص شحيحٍ ينفذ إليها
مُخترقاً الستائر البنفسجية في مشقة . ودقت الساعة ، فتمتت :

منتصف الليل !

وقامت « مسز كلارك » وقالت :

هَلْ لَكَ فِي نَزْهَةِ لَيْلِيَّةٍ ؟

فأجبتُ على الفور في غير تفكير :

هذا غاية ما أرجوه !

ونزلنا إلى ساحة الفندق ، والسكونُ يَفْشَى المكان ، والخدم
كلهم نيام ، أو على أهدبة النوم . وقصدتُ « مسز كلارك »
حارسَ الليل ، وكان جالساً بجوار الباب يترنح رأسه ترنح السُّمَل ،
فَوَكَلْتُ إليه تدير شيء ، وَتَقَدَّتُهُ عَطَاءً وَفَرًّا . نخرج الرجل
لوقته نشيطاً ليقوم بما وُكِّلَ إليه . ولم أشأ أن أسأل
« مسز كلارك » في تفاصيل هذه النزهة ، لأنى لم أكن أفكر
في هذا الوقت إلا في شيء واحد : أن أكون معها ، معها
وحدها . . . أما ما دون ذلك فلا يقع منى ببال ! . . .

وبعد قليل ظهر شبَّح الحارس ، وخلفه جملٌ يتهادى في
مِشِيَّتِهِ . وسمعتُ « مسز كلارك » تهمسُ في أذنى همسِ النَّفْمَةِ
الوديعه ، قائلةً :

ستكون نزھتُنَا في ذلك المحيطِ الرمليِّ العظيم ، على ظهر
هذه السفينة الطريفة

فأخذتُ يدها في يدي ، ولاطفْتُها

. وركبناَ الجمل ، وسرنا به في الطريق المُفضى إلى
الأهرام ، فصعدَ بنا في ذلك المُرتقى العسير ، ونحن على ظهره
نتأرجح في هَوَاةٍ على إيقاعٍ مُتزن . وكانت « مسز كلارك »
أخذةً بالزمام وأنا خلفها آخذٌ بنخصرها اللين الأملس ، أستقبل
شعرها الثائر لا يفتأ يُعَابِثُ وجهي في إلحاح . وكان الظلام
يحيط بنا إحاطةً شديدةً كأنه يحاصرنا . ولكننا كنا نشقه شقاً ،
فيتألب علينا عوداً على بدء ، فندفعه ، فيلاحقنا ومررنا
بأبي الهول ، فإذا به قطعة قُدَّتْ من الليل ، يسط لنا ذراعِيه
الضخْمَتَيْنِ ، كأنه يُحْيِينَا ويرحّب بنا كان الظلام مُكَدَّساً
بعضه على بعض ، وأشباحه المرهوبة تتخايل أمامنا كل لحظة .
بيد أنه لم يكن من شيء في العالم بقادر أن يثير فينا الاضطراب
والوجل . كانت الطمأنينة تملأ حولنا الوجود كله ، نُحِسُّهَا
شائعةً في رُوحِينَا !

وهبَطْنَا الوادي ، وبدأنا نسير في سهل صحراويّ منبسط ،
لا يعترضه إلا بعض من النخيل ، وقليل من كُشْبَانَ الرمال
وسرنا . . . ثم سرنا ، و « مسز كلارك » مستغرقةٌ في صمتها .

ثم رأيتها تَنفُ الجِلَّ ، وتدور بعينها طويلاً حولها ،
رافعة رأسها تحدقُ بنظرها في قبة السماء . والتفتت إلى ، وهمست
في أذني :

هذا الظلامُ البديعُ يكشف لنا من محاسن الطبيعة ما يعجزُ
النورُ عن إظهاره . تأملْ حولك ، ثم أضغِ إلى هذا الصمت
الرائع . إن الإنسانية الصاخبة الطائشة تنام الآن على صدر
ذلك الليل ، كما ينام الطفل الساذج على صدر أمه ألا
تُحسُّ في ذلك الظلام العظيم روحَ الامومة العطوف . . ! ؟
وسرنا أيضاً

وبعد حين أخذتُ تباشير الفجر تلوح في الأفق البعيد ،
كأنها عيون الكون تستيقظ . وشاهدنا هرم « سقارة » يتوضَّحُ
أمامنا ، فكأنه قِطْعُ مشعَّة أخذت تتجمع . وكلما تجلَّى نورُ
الفجر خلفَ ذلك الهرم ، تكاملَ شكله العتيق جلياً ، يستقبلنا
بابتسامته المهدمة المكدودة ، التي تحمل بين ثناياها أُنْقَالَ السنين .
. وما إن دخلنا مِنطَقَةَ الهرم ، حتى كانت الشمس
تملاً الكونَ بأسره ، وتجلِّدُ بأشعتها القاسية وجْهينا . . . ومررنا
على بدويٍّ من الأدلّاء ، واشتبكتُ معه « مسز كلارك » في

حديث . ثم أخذ الرجل بزمام الجمل ، وسار بنا محترقاً طريفاً غير
مستور ، حتى بلغ بنا معبداً يكاد يكون مطموراً في الرمال .
وقال لـ « مسز كلارك » :

هنا تجدين بُعَيْتِكَ !

فنزلتُ عَنِ الجمل ، ونزلتُ على أترِها ، وراحت تفاوض
حارسَ العبد بضع دقائق ، فأذنَ لنا في الدخول . وسمعتُه يقول
لـ « مسز كلارك » :

تستطيعين أن تقضي من الوقت ما تشائين ، دون أن يُقلِّقَكَ
إنسان . إن العبدَ مهجور ، ولم يأخذوا بعدُ في إعداده للزُّوار !
ودخلنا وحدنا ، وأغلقتُ « مسز كلارك » البابَ خلفنا .
وكان المكان مظلماً رطباً ترتاح إليه النفس ، إذ ينبعثُ منه
عِطْرٌ غريب هو رائحةُ العصور الخالية . مشينا في سِرْدَابٍ
حَجْرِيٍّ ينتهي بِبَهْوٍ صغير ، يتلصصُ النور إليه من شقوقٍ في
سقفِهِ . ورأيتُ « مسز كلارك » تتمطى في رشاقةٍ وتلينُ ،
كأنها تؤدي بعض التمرينات الأسُوجِيَّة . ونبستُ قائلةً في
نعمته صوت :

ما أطيبَ النومَ في هذا المكان . . . !

ثم أشارتُ إلى كُومَةٍ من المشيم في ركن من أركان البهو ،
وقالت :

حَسْبُنَا هَذَا فِرَاشًا !

وذهبتُ حيثُ أشارتُ ، وَسَوَّيْتُ المشيم على الأرض ...
واسترسلنَا في نوم عميق .



عدتُ إلى منزلي في مساءِ ذلك اليوم ، وأنا لا أكاد أعِي
من أمر نفسي شيئاً . أين أنا الآن ؟ وأين كنتُ منذ برهة ؟
وهل الزمن الذي أعيش فيه هو القرن العشرون حقاً ؟ أم أنا
هائمٌ في أطواء الماضي ، وما أراه حولى ليس إلا خيالات
لا تلبثُ أن تزول ؟ ومن تكون هذه المرأة ، هذه الكائنةُ
غيرُ الآدمية ؟ أهي التي يسمونها « أوزيريس » ربةَ الأرباب ،
تلك الجذوة الخالدة التي تسيطر على ما في الوجود من أحياء
وموتى ؟

وشعرتُ بالرُّعشة تسرى في جسدي ، وبالحمى تستيقظ متأهبةً
لِصراعٍ عنيف . فتهاكتُ على الفراش ، وقد بدأتُ أفقدُ
شُعُورِي ! . . .



وعلمتُ حين عاودني وَعِيٌّ أَنِّي قَضَيْتُ فِي مَنْزِلِي يَوْمَيْنِ
كاملَيْنِ ، أَهْدِي تَحْتَ وَطْأَةِ الْحُمَى . فَمَتُّ أُسْتَجْمَعُ نَفْسِي ،
وَتَرَكْتُ الْحِجْرَةَ مُسْرِعاً إِلَى « مِينَا هَاوس » .

ووصلتُ إلى الفندق ، وسألت عن « مسز كلارك » فأخبروني
بأنها غادرت المكان على أثر عودتها من « سقارة » ، وبارحتِ
القَطْرَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي !

رأيتُ « رُشْدِيَّةَ يُسْرِي » أولَ مرة عند ما ذهبتُ لمقابلة
« السَّتِّ رِيحَانَةَ » في شأن من شؤون وقف « يَسِّ باشا »
الذي تستحق فيه .

رأيتها تحمل إلى القهوة في حُجرة الاستقبال ، فاجتذبتُ نظري
على الفور برُوعة حسنها وتألُّق شبابها ، وما اتصفتُ به من كمال
وأدب . فسألتُ « السَّتِّ رِيحَانَةَ » عنها ، فأخبرتني بأنها
فتاةٌ يتيمة من أسرة كريمة ، أفقدها القدرُ ثروتها ، فتبنَّتها
وخصَّتها بموفور حنانها وعطفها .

وكنتُ قد أشرفتُ على الحسين ، ولكنني صحيحُ البنية ،
وافرُّ الثروة ، حسنُ المكانة . ولم أكن قد تزوجتُ بعدُ .
واختلفتُ إلى منزل « السَّتِّ رِيحَانَةَ » وتكاثرتُ مقابلاتي
لـ « رشدية » ، فقد كانتُ تقدِّمُ لي القهوة التي تقوم دائماً بعملها .
فشعرتُ نحوها بألفةٍ تزايدت على توالي الأيام . وأعجبتني ما تمتاز
به من صفات يصعبُ على المرء أن يجدها مجتمعة في شخص

واحد . لقد كانت حسناء ، جمع جسمها بين رشاقة النحافة وجمال الامتلاء . لونها يماثل لون القمح إذا تعرضت حباته قليلاً للشمس ، وعلى خديها حمرة طبيعية خفيفة كحمرة الصهباء الصافية . أما لون عينيها فلون العسل الأصيل الغني بسكّره وشمعه . وكانت هذه الفتنة تترأى وكأنها مغطاة بنقاب من الحرير الأسود ، نقاب يختلط فيه الحياء بشيء من الحزن والاستسلام . ولكن هذا النقاب الرقيق لم يكن ليقلل من فتنتها ، بل إنه ليزيدها ويُذَكِّبها .

كانت صموتاً ، تجلس بعيدة عنى . وكثيراً ما استعاضت عن الإجابة بابتسامة خفيفة تلمع على شفثتها . وتبدر منها بعض إشارات أو كلمات تدل على طيبة عريقة ، هي أقرب إلى سداجة الأطفال .

واعترمتُ أمراً في شأنها ، ولكنني تهيئتُ الإقدام عليه . ولا أدري لماذا تهيئتُ ؟ لقد كان الطريق مهداً خالياً من العراقيل . ولكن مرأى هذه الفتاة وهي تتقدم نحوى بالقهوة ، في ملابسها المحتشمة ، ووجهها الوديع بحزنه واستسلامه ؛ كان يُشير في شيئاً من السخط على نفسى .

وحدث مرة أن طرقتُ الموضوع بفتةً ، وبلا سابق إنذار
أمام « الست ريمحانة » فأظهرتُ رغبتى في الاقتران بـ « رشديّة »
فرحبتُ بهذه الرغبة ترحيباً يفوقُ الوصف . وفي اليوم التالي
عند ما ذهبتُ إليها دخلتُ ومعها « رُشديّة » ، وسمعتها
تقولُ لها :

تقدّمى وسلّمى على خِطيبِكِ العزيز .

فتقدّمتُ نحوى « رُشديّة » خجلةً انُحطّا . ولما مددتُ لها
يدى ، انحنتُ عليها لتقبلها في حركةٍ طبيعية صادقة ، ليس فيها
غلوٌّ ولا تكلفٌ ؛ فجذبتُ يدي ، وأدّنتُ رأسها منى ، وقبلتها
في جبهتها قبلةً ضمّنتها حبي وإخلاصى وشكرى .

... طرأ على « رشديّة » تغيرٌ يذكر بعد الزواج ، نشأ من توثق
الألفة بينى وبينها . ولكنها ظلت وفيها أثر من صمتها القديم ،
تميل في بعض الأحيان إلى العزلة والخلوّ إلى نفسها . وأظهرتُ
كفائتها في إدارة المنزل . وكانت دائماً تبتغى مرضاتى ، وتتوخى
سبيل محبتى .

ولقد كان يُقلّنى منها ذلك الطابع الذى لا يخلو من حزن
واستسلام ، ذلك الذى يحمل في تضاعيفه الغموض والخفاء .

وقد ينقلب ذلك الطابع الحزين المستسلم إلى نوع من التمرد الصامت ،
فتغدو أمامي باردة صلبة كقطعة من الرُّخام ، فأشعر بألم شديد ،
وتهاجمني الهواجس من كل صوب .

ومرة وجدتها على تلك الحال ، قلتُ لها في شيء من الجفاء :
يلوح لي أنك بدأتِ تتأسفين !

— على أى شيء ؟

— على زواجكِ بشيخٍ على أبوابِ الحسين !

— أوكد

— لا تؤكدي شيئاً لقد بدأتِ أفهم عظيمَ التفتية

التي بذلتها في سبيلي . . .

فنظرتُ إلى بعينين يتخايل فيهما الدمع ، وتلمع فيهما الحيرة ،
ثم اقتربتُ مني ، وألقتُ رأسها في أحضاني ، وتشبَّثتُ بصدري
تشبَّثَ الطفل الخائف ، يحاول أن يجد في أحضان أمه مأمناً وملاذاً .
وقلتُ لها :

أفصي إلىِّ بمكنونِ صدركِ يارشدية تكلمي .
ألستُ زوجكِ ؟ ألستُ بمثابة أهلكِ ؟

فازدادت تشبُّثاً بصدري ، وهي تشرقُ بالدمع ، وتمتمتُ :

لا شيء لا شيء !

ثم مَسَحَتْ عَيْنِهَا مُسْرِعَةً ، وَأَخَذَتْ تَبْتَسِمُ وَهِيَ تَقُولُ :
يسوءني أن أكون قد عكَّرتُ صَفْوَتَكَ . أَحِبُّ أَنْ أُعَدَّ لَكَ
كُوبًا مِنْ شَرَابِ اللَّيْمُونِ ؟
فَرَنَوْتُ إِلَيْهَا فِي حَنَانٍ وَتَعْجَبٍ ، ثُمَّ أَخَذْتُ يَدَهَا فِي يَدِي ،
وَقَلْتُ لَهَا :

أَحْبِبِّينِي يَا رَشْدِيَّةُ ؟

فَرَفَعْتُ رَأْسَهَا إِلَى يَمِينِي وَقَبَلْتُ جِهَتِي قِبَلَةَ هَادِئَةٍ سَادِجَةٍ .

كَانَ هَذَا الْخَفَاءُ هُوَ كُلُّ مَا يَكْدُرُ صَفَاءَ حَيَاتِي مَعَ « رَشْدِيَّةِ »
فَأَسْتَسَلِمُ لِأَفْكَارٍ مُتَضَارِبَةٍ تُقْلِقُنِي وَتُمْضِي . وَلَكِنْ حُبِّي لَهَا كَانَ
فِي نَمَاءٍ ، هُوَ حُبٌّ تَجْمَعُ فِيهِ غِرَامُ الْعَاشِقِ ، وَحُنُوُّ الْوَالِدِ ، وَإِخْلَاصُ
الصَّدِيقِ . وَكَثِيرًا مَا أَجْلَسْتُهَا بِجَوَارِي ، وَأَحْطَيْتُهَا بِذِرَاعِي ،
وَأَدَمْتُ إِلَيْهَا النَّظَرَ بِشَغْفٍ ، وَقَلْتُ لَهَا :

هَلَّا رَغِبْتَ فِي شَيْءٍ فَأَحْضَرْتَهُ مِنْ سَاعَتِي ؟ لَمْ أَسْمَعْكَ تَطْلِبِينَ
مَنِي شَيْئًا !

— وَمَاذَا أُطَلِبُ ؟

— أَيَّ شَيْءٍ .

فتبتسم في وداعة ، وتقول :

لم تدع لي ما أطلبه . إنك تفكر في كل شيء ، وتُحضر
كلَّ ما أصبو إليه .

*
* *

وكانت « رشدية » تذهب مرة كل شهر إلى « الست
ريحانة » فتقضي عندها اليوم كله . ولاحظتُ عليها أنها
— قبلَ ذهابها ، وعقبَ عودتها — تزداد صمتاً وانطواءً على
نفسها ، ويبدو عليها مظهرُ الخفاء والغموض واضحاً جلياً .
وكانت إذا كَلَّمْتَنِي لم تستطعُ رفعَ بصرها إلي . فأعجبُ
لأمرها ، وتُساورُنِي شتَّى الوسوس ، وأقضي الوقتَ مضطرباً
في تحسُّر وتألُّم ثم أعود ثانياً إلى هدوئي . وأحلُّ
مسلكَ « رشدية » على محملِ شذوذ في أطوارها لا يخلو من
مثله إنسان .

وعند ما خرجتُ مرةً إلى « الست ريحانة » لتقضي يومها
على عادتِها ، اعتراني قلقٌ شديد ؛ فتركتُ المنزلَ إثرها وأنا
معتزمٌ كشفَ سرِّها . وما إن انتصفَ بي الطريق حتى شعرتُ
بضميري يشور علي ، ويتهمني بالتهوُّرِ وقلةِ التبصُّر . . . وخَجِلْتُ

(٤)

من نفسى ، فتركها وطريقها وعدتُ إلى المنزل شديدَ الرغبة
فى التكفير عن ظنونى الخبيثة .

أما فى المرة التالية ، فقد ازداد قلقى ، وانتابنى احتياجٌ جديد .
ولم أستطع بمختلف الوسائل أن أضبطَ عواطفى الثائرة ، واعتقدتُ
اعتقاداً جازماً أن ضميرى وعقلى كانا يَغشَانِى ، وأن « رشدية »
تُخفى تحت ستار طهارتها وحيائها نفساً ماكرة ، وأنها استطاعت
بفضل دهائها وغفلتى أن تتمكنَ من خديعتى . ووصلتُ إلى
منزل « الست ریحانة » وأنا أشعر كأن نِصَلاً مسنونةً قَطَعْنَ
قلبى . . . وصعدتُ فى الدَّرَجِ أَقْفِرُ قَفْزَاتِ النَّمْرِ الهَامِجِ ، فوجدت
البيتَ خالياً إلا من الخادِمِ العجوز . فأقبلتُ عليها أسأها ،
فأجابتُ بأن سيدتها خرجت مع « رشدية » إلى « القرافة » ،
فقلتُ متعجباً :

القرافة ! أفذهبان إليها كلِّ مرة ؟ ؟

— نعم يا سيدى كلِّ مرة .

— ماذا تصلان هناك ؟

فأجابتنى الخادِمُ فى لهجةٍ لم أدرِ ألهجةُ خُبثٍ هِيَ أم لهجةُ

استهزاء ؟ قالت :

وماذا يعمل الإنسان في « القرافة » ؟

فهممتُ وعيناي تقدحان بالشرر :

حقا لقد أَحَسَّنْتَ اختيارَ المكان !! !

وتركتُ المنزلَ « والقرافةُ » وجهتي . كنتُ أعرفُ مكانها ؛
إذ لم تكن تبعد عن قرافتنا طويلا . وأحكمتُ رَسْمَ خُطَّةِ
تُنيلني . غرضي . وأردتُ أن أفاجئُ « رشديَّة » متلبسة بالجريمة .

وما إن وَصَلْتُ ، حتى أَقْبَلْتُ على البابِ أَنْصِتْ ، فلم أسمع
شيئا ، فدخلتُ في حَذَرٍ ، وسرتُ بِمُخْطَا لِيصِّ ماهر . كان
السكون شاملا ، ونور النهار قد بدأ يضمحل ، فجُستُ خلالَ القبور
المهدِّمة كأنني ثعلب جائع ، وودنوت من المقصورة الخشبيَّة التي
تحوى أجداثَ الراحلين من الأسرة ، ووقفتُ أنظر من بين
الشُّقوق ، وأنا أُعدُّ العدة لهجوم مفاجئ كانت المقصورة
يفشاها بعضُ الظلمة ، ولكنني استطعتُ أن أتبينَ مَنْ فيها : « الست
ريحانة » ملقبةٌ بظهرها إلى الحائط ، في شبه غَفْوَةٍ . أما « رشديَّة »
فكانت بجوار قبرٍ تبكي ، مَنشَحَةً بِطَرَحَةٍ سوداء . كانت
تمخفي وجهها في منديلها وهي تَنثُرُ الدموع ، صامتةً لا يُسمع منها
إلا نسيج متتابع . وجُلتُ ببصرى في أنحاء المقصورة أدقَّق النظر

وأغالط نفسي ، ثم وقفتُ عيني عند « رشدية » مرة أخرى ولم تعد تفارقها . ولبثتُ على حالي وقتاً لا أبدو حراكاً حتى حسبتُني قد صرت جزءاً من الحائط الخشبي الذي كنت أنظر من شقوقه . ماذا كان شعوري في تلك الساعة الرهيبة ؟ كنت في حالة من الجود لا عهد لي بها من قبل أُحدِّقُ تحديق الخبول في « رشدية » وهي بجوار القبر صامته تبكي بلا انقطاع ، ولم تغير جلستها في الوقت كله ولا أدري كم مضى علينا من الزمن ونحن على هذه الحال . . . ؟ وأخيراً شعرتُ بـ « الست ریحانة » تستيقظ من خمولها ، وتدلِّفُ نحو « رشدية » فتنبهها إلى أن الساعة قد آذنت بالرحيل . فأسرعتُ إلى قبرِ أختي وراءه لأرقبَ ما يكون ، فرأيتهما تخرجان في خطواتٍ متناقلة ، وظللتُ أتبعهما بنظري حتى أخفأهما الطريق . فدخلتُ إلى المقصورة ، ومضيت نحو القبر الذي كانت تنذبه « رشدية » فقرأت ما هو مكتوب على الشاهد :

« أحمد بصرى .

مات وله من العمر سبعة عشر ربيعاً .

رحمه الله رحمة واسعة .

ووقتُ أكرَّرُ ما قرأتُ ، ثم أخذت أستعيد ما أذكره عن
صاحب القبر . . . أحمد يسرى هو ابن عم « رشدية » ، كان
في مثل سنِّها . وقد مضى على وفاته ما يقربُ من عام . . .
وانطلق بي التفكير في أمرها طويلاً . وجعل خيالي يرسمُ لي
مشاهدَ من حياة الطفولة والصبا التي قضياها معا ، مشاهد شتى
كلها طريف ، وكلها مُفعمٌ بالغبطة والآمال الحُلوة . . . وتلك
العاطفة التي كانت تشبُّ في قلوبهما وتتوهج ، يُذكِّها شباب
غضِّ فتي . . . وأحسستُ بقشعريرة تنهَبُ جسدي . . .
وهاجني ضيقٌ عنيف . ورمقتُ القبر بنظرة ملتهبة ، وأمسكتُ
بالشاهد ، كأنما أريدُ أنزاعه وتحطيمه .

. . . . سبعة عشرَ عاماً قضاها في هذه الحياة كما يقضيها
النَّيرُكُ البرَّاقُ ، لا يكاد يلمع في الأفق حتى يخبو نوره ويتوارى
في غياهب الظلمات ، ولكنها سبعة عشرَ عاماً مفعمةٌ بالحبِّ
والشباب . فهي تُقاس في نظري بألاف السنين . . . الحبُّ
والشباب ، لا الشفقة والشيخوخة . . . الشفقة التي تمنحُ
كالصدقة للسائل التمس ، والشيخوخة التي تدبُّ على عُكازةِ
الفناء ، لا يحوطها غير الأنين . . . وشعرتُ كأنني أختنق

وكان الأعوامَ الحسین التي قطعتمُها في هذه الحياة قد تجمعتُ كلها
فوق كاهلي ، فحنتُ ظهري ، وأثقلتُ خطأي . كأن هناك جبلاً
يرسُو على عاتقي ... وانكبتُ دفعةً واحدةً على وجهي ،
واسترسلتُ أبكي ... وأبكي ، وأبكي

ثم قمتُ ، وخرجتُ متمهلاً ، وعدتُ إلى داري ، فناديتُ
« رشديّة » . فلما حضرتُ أدنيتها مني ، وأمسكتُ يدها وقلتُ
في هدوءٍ شاملٍ :

لقد كنتِ في القرافة يا « رشديّة » ... وفهمتُ كلَّ شيءٍ !
وشعرتُ بيدها تختلج ، فلم أحوّلُ بصرى إليها ، بل كنتُ
أنظر دائماً أمامي ؛ وسمعتها تتممُ مضطربةً :

سيدي ... سيدي ...

— كوني مطمئنة . إنني لا أحملُ أيةً ضغينةً لكِ ولا
لابن عمك المنكود الحظ ... كل شيءٍ قد انتهى ...

فرفعتُ يدي إلى فمها ، وقبلتها قبلةً عميقة . فأجلستُها على
رُكبتَي ، وحدقتُ فيها تحديقاً حاراً ؛ ثم طوقتُ خصرها
بساعدي ، وضممتها إلى صدري ضمةً المشتاق ، وقد تلاقى شفاهنا
واشتبكتُ في قبلةٍ طويلة .

ورفعت « رشدية » بصرها إلى ، كأنها تسألني متعجبة عن
سرِّ هذا العناق الذي لم تتذوقه مني قبل !



وفي اليوم التالي بعد الغداء لم أذهب كعادتي لأتقيل ، بل
رغبتُ إلى « رشدية » في أن نلعب الورق . وكانت مَشغُوفَةً
به . ولم أكن أُجيب رغبتها فيه إلا نادراً ؛ إذ لم يكن لي
جَلَدٌ عليه ، ولا أجد فيه أية سَلْوة ؛ وإني لأفضل عليه النوم
أو قراءة الصحف . ولما جاءت « رشدية » بالورق ، وجلستُ
قبائلي ، أخذتُ بيديها وقلتُ :

ماذا يكون نصيب الراجح ؟

فابتسمتُ ولم تقل شيئاً ، وأومأتُ إلى إيماءة الرضا بما أفرضه
عليها ، فقلتُ :

سنجعل للراجح مكافأة غير محدودة .

— كيف ؟

— على المغلوب أن يُطيعَ الغالب في كل ما يطلبه منه .

فابتسمتُ ثانياً ابتسامة الوفاق .

وبدأنا نلعب ، وأظهرتُ حماسة شديدة ، فتشجعتُ « رشدية »

وطاوعتُ سَجِيَّتَهَا ، تقابلُ حاستي بأشدَّ منها . واجتهدتُ أن
أخرج من المعركة مغلوباً ، فتورّد وجه « رشدية » ، وقالتُ ،
والسرور يتلألأ على وجهها :

نلعب دوراً آخر .

— طبعاً . وهل أدعك تتغلبين عليّ ؟ مستحيل !

— سنرى .

ولعبنا الدور الثاني ، فتعمدتُ الانهزام ، وصحت محتجاً ،
و « رشدية » تَضِحُّ بالضحك تُجيجُ طفلة مَرِحَة . ثم لعبنا دوراً
ثالثاً ، فخسرتُه أيضاً ، فتظاهرتُ بالهياج ، ورميتُ الورق وأنا
ألعنه . فأقبلتُ عليّ « رشدية » مزهوةً بانتصارها ، وقالتُ :

لا تنس شروط الاتفاق !

— طبعاً . عليك أن تأمرى ، وعليّ أن أطيع !

فوقفتُ أمامي تفكر ، وتناولتُ يديها ، ورحتُ أتأملها تأملاً

عميقاً . فقالتُ :

إنك تُضايقتني بهذه النظرات !

— وهل أستطيع أن أحول عيني عنك ؟

— دعني أفكر !

وعادت إلى تفكيرها . ولما طال بها الأمر ، رفضتُ في هدوء
يديها إلى فمي . وبعد قبلةٍ لطيفةٍ قلتُ لها :

— اسمعي ، سأقوم مقامك في هذه القضية . وسأفرض
على نفسي الغرامات التي أستحقها .

فابتسمتُ وقالتُ :

وما هي هذه الغرامات ؟

— ستريين . . . إنما نريد الآن أن نخرج معاً .

— إلى أين ؟

— لا تكثري من الأسئلة . اذهبي واستعدي .

وبعد حين خرجنا في السيارة ، وقصدنا إلى محل « شيكوريل » ،
وانتقيتُ لـ « رشدية » مجموعة من أنحف الثياب . ثم ذهبنا بعد ذلك
إلى محل « عارف بك الجوهري » بشارع المناخ ، فأرانا سواراً
ومشبكاً غاية في دقة الصُّنع وسلامة النون ، فلم أترددُ في
أخذها لها .

وعدنا إلى السيارة و « رشدية » تفرها الدهشة مما ترى ،

فنظرتُ إلىَّ وقالتُ :

كل هذا لي ؟

— بالطبع لكِ يا حبيبتي !

— ولكن

— ليس هناك « لكن »

فأرادت أن تتكلم ، فلم تعرف ماذا تقول ، فلبثت صامتة ،
تدع لعينها أن تفصح عما يجول في خاطرها ، ثم ضغطت يدي
في حُنُوقٍ بالغ . وقلتُ للسائق :
على « فلوران » يا أسطى . . .
فقلتُ :

« فلوان » ؟ لماذا ؟

— أنسيتِ أننا سنقيم الليلة وليمة ؟

— وليمة . . . ؟

— وليمة فاخرة !

— ومن هم المدعوون ؟

— كثيرون جدًا أنا وأنتِ !

فضحكت ضحكةً لطيفة ، ورأيت فيها شيئاً فقَبَلْتُهُ قبلةً
عَطَشِي . . . فعلتُ ذلك على مرأى من السائق وعلى مسمعٍ
منه ؛ لم أتورع !

ونزلنا عند « فلوران » ، فاشتريتُ ألواناً متعددة من
المشهيّات والحريّفات ، وبضعَ زجاجات من أُنجر الشمبانيا .
وعدنا إلى المنزل .

وكان حقاً عشاءً نفحاً وسهرةً ممتعة ، قضيناها بين أنغام
الرديو والفونوغراف والبيان !

وفي الغد قصدتُ إلى طبيبي الخاصّ ، وخلوتُ به خلوةً
طويلة . . . ولما خرج ليودعني إلى الباب ، رَبَّتَ كتفي وهو
يُناولني تَذْكَرَةَ الدواء ، وقال :

قليل من الرياضة بجانب هذا الدواء ، كفيلاً أن يعيدك
إلى الوراء عشرين عاماً .

فضغطتُ يده شاكرًا ، وقلبي تتزاحم فيه الآمال . ولما عدتُ
إلى المنزل طلبتُ الطاهي ، وأخبرته بأنني سأضع له في كلِّ
يومٍ برّنامَجَ الطعام ؛ فلا يَبِتُ في أمرٍ دون استشارتي .
وختمتُ كلامي معه بقولي :

أريد تنويعاً في الطعام ، لا تظن أني رجل هَرِمٌ يقنع
دائمًا « بيوريه البطاطس » والفراخ المسلوقة . إن معدتي تهضم
الحبج ، عليك بالألوان الدسيمة المتوّبلة . . . أفهمتُ ١١٤

ومنذ ذلك اليوم بدأتُ أُعنى عنايةً خاصةً بهندامى ،
فاستبدلتُ خيَاطاً حاذِقاً بخيَاطى القديم ، والتزمتُ تَصْفيفَ
شعرى وتعطيره ، وقصَّ شاربى على الطريقة الفرَنسيَّة . وكنتُ
إذا مَثَلتُ أمام المرآة اعتقدتُ اعتقاداً جازماً بأن ابن الحسين
لا يَقِلُّ نَضْرَةً وبَهَاءً عن ابن العشرين . بل إن ابن
الحسين ليفوقُ الشابَّ باكتمال رجولته ونُضْجِه وحُكْمِه .
وابتسمتُ ابتسامةً رائعةً ، ثم رشَّقتُ فى جيب « سُترتى » منديلاً
من الحرير وردياً زاهياً اللون .



وكلما توالى الأيام ازدادتُ كَلْفاً بـ « رشديَّة » ، وأغدقتُ عليها
التمين من الهدايا والتَّحَف . . . ورأيتها قد خرجتُ عن تحفظها
القديم فأصبحتُ معى بلا كُلفَةٍ .

وجاءتني مرةً ، وكنت مهتماً بوضعِ مِشْبِكٍ من اللؤلؤ فى
رباط رقبتي ؛ وبعد أن أطرتِ المِشْبِكَ أرتنى دَفْتراً لصور
السيارات ، وأشارت إلى عربة صغيرة ذاتِ مقعدَيْن من نوعِ
« البويك » . ثم وضعتُ رأسها على كتفى ، وأخذتُ تعبثُ
بشعر رأسى ، وقالتُ :

ما رأيك فى هذه العربة « السبور » ؟

— بديعة . . . ولكنى أراها صغيرة .

— ليست صغيرة على شخصين متحابين !

فنظرتُ إليها مبتسما ، وقلتُ :

ومن يسوق إذاً ؟

— أحد هذين المتحابين !

وقبَلتني في خدى قبلةً لطيفةً ، وقالتُ :

جميع السيدات « الشيك » يَقْدُنَ سياراتهن بأنفسهن . . .

ولا تنس أن وجود السائق في النزعات الخَلَوِيَّةِ كثيراً ما يكون

غير مرغوبٍ فيه .

— صحيح !

— تصوّرُ أنا وأنت ، ولا أحد سوانا ، تحتوينا

هذه السيارة الصغيرة ، في طريق السويس أو الفيوم ، في

ليلة مقمرة من ليالى الصيف

فضممتُها إلى صدرى ، وأنا أرددُ :

بديع بديع !

وفي الغد ، كانت السيارة « البويك » ذات المقعدين أمام

الباب ، وبدأتُ « رشدية » تمرّن على قيادتها .



وحلَّ العيد — وهو موسمُ القرافات — فدعوتُ « رشدية »
وقلتُ لها :

لا تنسى يا حبيبتي أننا سنذهب صباح الغد إلى القرافة !
فعبستُ قليلاً ، وقالتُ :
القرافة . . . !

— هذه عادة سنوية يجب أن تؤديها احتراماً لموتانا
وتوقفتُ برهة عن الكلام ، أظاھر بأني أصلح رباط رقبتي ،
ثم قلتُ وقد خفّضتُ من صوتي قليلاً :
وسنذهب أيضاً إلى قرافتكم !
فغضتُ من بصرها ولم تُجِب ، وأخذتُ تعبتُ بزِرِّ سُرَّتِي ،
ثم خرجتُ سَاهِمَةً .

وفي الغد ارتديتُ أنغر حُلَّةً عندي . ووجدتُ « رشدية »
قد أتقتُ زينتها إلى حدِّ بعيد . فوقفتُ أنظر إليها ، مُعْجَبًا
بها نفوراً ، وقلتُ :

لم تستعملي هذا الكحل قبل اليوم !

— أَيْعُجِبُكَ ؟

— جدًّا ، ثم تصيف شعرك على هذا الوضع .

— ماذا ؟

— ساحرة ، ساحرة !

وركبنا السيارة ذات المقعدين ، وكانت هي التي تقودها ،
وذهبنا أولاً إلى قرافتي ، ثم عرَّجناً منها على قرافتها .

دخلتُ معها المقصورة الخشبية ، ووقفنا معاً أمام قبر
« أحمد يسرى » ، ورأيتُ « رشدية » قد أرختُ جفنيها
وكأنها بدأت تستغرق في شيبه حلم . أما أنا فأخذت أقرأ
« الفاتحة » بصوت خافت . وحضرتني في تلك الساعة ذكري
زيارتي لهذا القبر ، منذ بضعة أشهر ، فوازنتُ بين موقف
« رشدية » مني في ذلك الوقت ، وموقفها مني في الحالة التي أنا
عليها الآن . فغلبتني ضحكة لم أستطع حبسها ، ففتحتُ « رشدية »
عينها ، ونظرتُ إلى متعجِّبة ، فقلتُ لها على الأثر :

سأنتظرك في حجرة الزوار . . . أرجو ألا تطيلي زيارتك .

وخرجتُ وأنا أظللُ وجهي بمنديل المعطر الوردى اللون ،
وقصدتُ إلى حجرة الزوار ، وأخذتُ أتسلى بشيء من الفستق ،
كنت قد ملأتُ به جيبي . ومكثتُ أنتظر . . . وطال

انتظاري ، وأخيراً خرجتُ وناديتُ « رشدية » :

ألم تنتهي بعد ؟ هَيَّا !

وتقدمُ مني « التُّربي » وقال في بساطة :

السَّتْ رَكبتُ « الأتمبيل » وراحت .

فنظرتُ إليه مصعوقاً ، وقلتُ :

— راحت ... ! إلى أين ؟

— لا أدري يا سيدي .

وأسرعتُ إلى المقصورة ، ودُرْتُ بعيني فيها أبحثُ عنها ، فلم

أجدها . ووقع بصرى على قبر « أحمد يسرى » ، بقامته الفَتِيَّةِ

الجبارة ، فرمقته بنظرة نَكَرَاء ، ثم تركتُ المقصورةَ وِصَحْتُ

بـ « التُّربي » في غَضَبٍ :

اذهب وأُتِنِي « بتاكسى » في الحال .

وركبتُ « التاكسى » وعدتُ إلى البيت ، وأنا أَعْلَى

كالرَّجَلِ . . . ! !

ح ب

كانت لنا ضيعة في « الشرقية » ، أوالى التردد عليها ،
لتعهد أعمالها الزراعية . وكنتُ أعرف فيها رجلاً يُدعى
« الشيخ عساف » وهو نِسَّاج ، كثيراً ما زرتُه في داره لأشاهدَه
وقت العمل ينسج على نوله المتواضع البدائي ، وهو يرحب بي
في كل مرة أزوره فيها ، ويقدم لي تحيته الريفية المعروفة : القهوة .

والرجل وقورُ النفس ، وسيمُ الطلعة ، حلو الحديث . له لحية
مُهَنْدَمَةٌ ، يختلط في شعرها البياض بالسواد . . . ماتت زوجته
منذ أعوام ، وخلفت له ابناً وحيداً ، هو كلُّ أسرته . عكف
على تربيته وتعليمه صناعة النسيج ، حتى برع فيها ، وأصبح
ساعده الأيمن . وكان شاباً جميلَ التكوين ، قوى البنية ، تلتع
عيناه ذكاءً ونشاطاً . يُحبه أبوه أعظم الحب ، ويكثر من التحدث
عنه في المجالس ، معدداً مواهبه في زهو وإعجاب .

وذهبتُ مرة إلى الضيعة ، كعادتي ، فبوغتُ بنخب فاجع ، كان له
أسوأُ وقع في قلبي . . . علمت بأن ذلك الفتى مات قتيلاً
تحت عجلات القطار !

فقصتُ من فوري إلى « الشيخ عسّاف » في داره ، لأعزّيته
عن نكته ؛ فأحسن استقبالي ، وأكرم وفادتي ، وقدم لي
— على عادته — قهوته الريفية ؛ ولكنه كان يروح ويحيى
كآلة المتحركة بلا رُوح . وشهدت عليه شحوباً وامتناعاً لون ،
وكنتُ أحسُّ — وهو يتكلم — أنه ينتزع الألفاظ من فمه في جهد ،
وكأنه يلتمس الموضوعات في خيرة ، ذلك الذي عرفته لا تعوزه
طلاقة ، ولا يخونه بيان . . . ورأيتُه تعتريه نوباتٌ صمت ووجوم ،
يستيقظ منها مذعوراً ، ويتلفّت حوالبه مدهوشاً ، كأنما يقول :
أين كنتُ ؟ وأين أنا الآن ؟ ثم يستأنف حديثه في مشقة
ومعاناة . . .

وقد عزّيته بكلمة موجزة ، حاولتُ أن أضمنها حقيقة شعوري له ،
فأجابني بردٍ ساذج مألوف ، أذاه بصوت حَبِيس ، ونبرات
مختلجة . . . وكان هذا الحديث القصير كلِّ ما تبادلناه من
الكلام في مصرع ولده الوحيد . ولما انتهت زيارتي ، هَزَزْتُ
— في صمتٍ — يده طويلاً هِزّة الودِّ والحنان . . .



وتلاحقت الأيام ، وتكررتُ زيارتي للضيعة ، وكنتُ دائماً
أسأل عن « الشيخ عسّاف » فيخبرونني أنه قلماً يخرج من

منزله ، فأذهب إليه ، وأقضي معه بعض الوقت ، فأراه يتهدم يوماً بعد يوم ، ويزداد وجهه من شحوب وتجمّم ، وتضعف رغبته في التحدّث والمسامرة . وقد ترك لحيته لشأنها ، فتشعّثت وقذّرت ، حتى بدت في شكل بغيض . ولم يعبا بملابسه ، فإذا هي مهلهلة تعلوها الأكدار

ورأيت منسجّه غارقاً في صمته ووحدته ، يعيث فيه الغبار ، ويعمل عليه العنكبوت ! وعلمت أن معيشته قد اضمحلت ، وأنه باع جاموسته ودواجنه . أما منزله فصار خراباً ، يُخيم عليه الإهمال ، لا يتنفس عن حياة ؛ فهو أشبه بقبر متهدّم عتيق ، غير صالح حتى للأموات

وأخذ الرجل في بعض الأحيان يزورني في « الدوّار » أداءً لحقّ الجمالة ، فيقضي جلّ الوقت راكداً النفس ، يتصفح همومه همّاً بعد همّ في غيبوبة وارتياح فإن تحدّث لم ينبس بحرف يتصل بالكارثة التي دهمت ولده ، فأثكلته إياه !

وبعد تناوله القهوة معي ذات مرة ، رفع رأسه ، وسألني قائلاً :

ألا تستطيع أن تخبرني يا سيدي البيه : بيم يشعر من يموت

تحت عجلات القطار ؟ وما مبلغ ألمه ؟

فباغتنى هذا السؤال ، وحاولتُ عبثاً إخفاء حيرتى ، فلم
أتمالكُ أن قلتُ له :

أظنُّ أنه لا يشعر بشيء ، إنها مِيتة سريعة ...

فجهرَ بقوله فى تأكيد :

يقينى أنه يُعانى أشدَّ الآلام !

واحتقن وجهه ، وغارتُ تجاعيده أكثرَ من ذى قبل ،
واحمرَّت عيناه المرُبدتان ، وانفخت عروق رقبته ، واضطرب
تنفُّسه ؛ فاحترمتُ عاطفته المهتاجة ولم أُجِب . وبقي كذلك
برهة فى ثورة محتبسة ، ثم هدأ شيئاً بعد شيء ، وغشيه
الخمول ...

ومرت الأيامُ تلوَ الأيام ، وأنا أختلف إلى الضيعة فى الحين
بعد الحين ، فأرى « الشيخ عَساف » يتحدَّر من سَيِّء إلى
أسوأ ، حتى صار كالميكِكل . فما إن يخطو قليلاً حتى تظهرَ عليه
بوادر الإعياء ، وهو دائماً مستغرق فى صمته القَلِق ، وشروده البعيد ...
حقاً لقد كانت حالة تدعو إلى التألم والرثاء ، بيد أنه لم يكن
فى المستطاع أن يواسيه أحدٌ بشيءٍ يخفِّف من كُرْبته !

ومكثتُ مرةً في الضيعة أسبوعاً، شهدت في خلاله « الشيخ عسّاف » مرة واحدة... جاء في ليلة سفرى إلى القاهرة، وأنا منفرد في الحديقة أطلبُ الراحةَ لنفسى من عناءِ يومِ كَلُّهُ مَشْغَلَةٌ وَنَصَبٌ. وكان السكون الراح يملأ المكان؛ فخياني الشيخ، وجلس أمامى وهو يَنْهَجُ مُتَعَبًا من السَّيْرِ. وبعد أن استراح قليلاً، بادرنى بقوله :

لقد قصدتكُ لحاجة... فهل أنتَ قاضٍها لى ؟
فقلتُ وقد تحققتُ أن الرجل يُعانى ضيقاً مالياً :
طلبكُ محاب يا شيخ عسّاف... كم تطلب ؟
فنظر إلى متعجباً، وقال :
لا أطلبُ تقوداً يا سيدى !

— إذن ماذا ؟

— أسمح لى بمراقبتكُ إلى « الزقازيق » غداً ؟
فنظرتُ إليه في دهشة... وابتسم ابتسامة خفيفة، وقال :
أريد أن أرى الدنيا... أن أُسْرِىَ عن نفسى قليلاً...
أن أشاهد خلقَ الله فى المدينة الكبيرة التى لم أرها إلا مرةً

في صباي... أتجد في طلبى هذا ما يثير العجب؟
وكان يتكلم بلهجة متزنة رقيقة، وقد بدأ وجهه يُشرق
إشراقه القديم. وأخذ يبدى، وجعل يُلطفها في إلحاح،
وهو يقول:

ألا تُجيني إلى طلبى؟

قلتُ له، وما زلت متحيراً:
أجيبك إليه إذا كان يسرك...
فلمعت عيناه، وقال:
يسرني جداً!

ومن ثم أخذ يُسامرنى بشيء من طرائفه التي كان يُمتعني
بها، وأكاد أنساها لطول غيبتها عني... وكان وهو يمضي
في حديثه كأنه يجلو الصدا عن تُحفة نفيسة مهمة، ويُعرضها
من جديد متألقة تستهوى القلوب!

ولم يطل مكوته معي، إذ بدأ عليه الفتور سريعاً، فأغفيتها
من جلسته. وقام وهو يشكرني، ويكرّر لي عزمه على مرافقتي
إلى «الزقازيق».

وفي صباح الغد أعدوا لنا العربة ذات البغلتين المهزولتين ،
واعلى مقعد القيادة فلاحٌ بلبدة سمراء وجلباب أزهر . وكانت
في يمينه عصا طويلة لينة يتخذها سوطاً . وصعدتُ في العربة
أنا وناظر الضيعة . وارتقبنا مجيء « الشيخ عساف » . ولما طال بنا
المكثُ ، قال لي الناظر :

إن الرجل لن يحضرَ على ما أظن . وقد أزيفَ موعد القطار .
فأجبتُه قائلاً :

وهذا رأيي أيضاً . . . هيا بنا .

وما كادت العربة تتحرك ، حتى سمعنا صوتاً متقطع الأنفاس
يناديننا . فالتفتُ فإذا بالشيخ عساف يجري صوّبنا ، على قدر
جهده وقوته . وهو يلوح لنا بكفتا يديه . فأمرت الخوذي أن
يقف . وجاء الرجل فارتقى العربة ، وتهالك على المقعد في حالة
تُشبه الإغماء ، وهو يتمم قائلاً :

كادت تفوتني الفرصة . . .

وسرنا . . . وقد أخذ الشيخ يستعيد قوته ، ثم راح يبذل
ما في وسعه ليسامرتنا . ولكنه أخفق ، إذ كانت موضوعاته

مضطربةً تافهة ، ولهجته متقطعةً مختلةً . وكان ينسى نفسه ،
ويستغرق في وجوم عجيب ؛ وتصيبه الرعدة أحياناً ، كأنه مقرر
أو محموم .

وأخيراً . . . وصلنا ، ونزلنا عن العربة ، ودخلنا المحطة . ثم
قصدنا إلى المشرب ، وطلبنا قهوة ، واشترينا لفائف تبغ . وما هي
إلا أن قلَّ كلام الشيخ حتى أصبح نادراً ، وعكف على قهوته
يحتسيها ، وعلى لفائفه يدخنها . ولاحظت أن وجهه يَفْشاه الامتقاع ،
وأن شفثيه ترتعشان بين آن وآن

وأخرجتُ ساعتى ، وقلتُ :

بَقِيَ عَلَى وَصُولِ الْقِطَارِ خَمْسُ دَقَائِقَ !

فرفع « الشيخ عساف » رأسه ، وقال وهو يستعد للقيام :

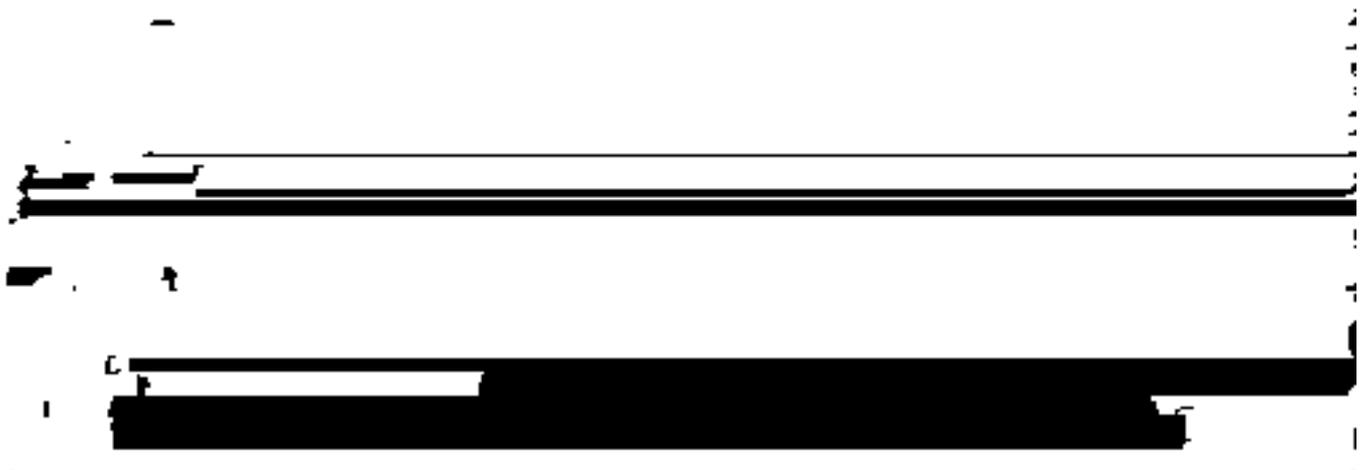
هَلُمَّ . . .

وقفنا إلى الرصيف . وبعد قليل سمعنا هدير القطار ، ثم رأينا
يهجم على المحطة هجوم الغازى المنتصر . وبينما كنتُ مشغولاً
مع الناظر والحمال بإعداد الحقائب ، سمعتُ صياحاً عالياً تبعته
جلبة وهرج . ثم شاهدتُ ازدحاماً على جهة من الرصيف ،
وظرقتُ سمعى هذه الجملة :

لقد تهشم وتقطع إزباً إزباً . . .

وجريتُ صوبَ الزَّحَامِ ، واستطعت أن أرى تحت عجلات
القِطَارِ دماً يتسائلُ ، وبقايا أثوابٍ متناثرة ، وأشتاتاً من
لحمِ آدمي . . .

والتفتُ حولي أتفقّد « الشيخ عسّاف » فلم أعرُ لشخصه
على أثر !



غازي سانه

جرى ذلك عام ١٩١٥ والحرب العظمى على أشدها : رائحة البارود والدم تغم الأنوف ، وتجم على الصدور . جو خانق كله فزع ورهبة .

كانت القاهرة في ذلك الوقت تزخر بالجنود البريطانية . تصادفهم في كل مكان ، فيخيل لك أنهم زرع سام ينبت بين كل خطوة تخطوها في الطريق . تعترضك عربات « اللورى » الضخمة ، فترام متراصين كالحرفان المسوقة للذبح ؛ ينشدون أغانيهم الوطنية بصوتهم الضخم الجاف . وقد يلتقى نظرك بنظرهم ، فإذا بهم يجبهونك بوجوههم المحتقنة المشدودة ، وعيونهم المتهبة التي تتمثل فيها رغبات النفس الجامحة ، وابتساماتهم التي تحمل طابع الترفع والازدراء .

وقد كنت أنتذ أسكن في « شارع محمد على » ، فصار لزاماً على عند أوتى إلى المنزل أن أستقل ترام القلعة ، والقلعة — كما هو معلوم — ^{كان} معسكر مهم من المعسكرات البريطانية .

وكان ركوبُ هذا الترام من الأعمال الشاقة التي تتطلب
بطولةً في تلك الأيام ، فإذا استطعتَ أن تجد مكاناً لقدمٍ واحدةٍ
على السلم ، وأنت متشبَّثٌ بيدك ، عدتَ ذلك مِنَّةً من الله
تستوجب الحمد . والعجيب أن يستطيعَ التحركَ وهو مثقلٌ
بأولئك الجنود وعامة الناس المكَّدسين فيه ، بعضهم على بعض .

رأيتها وأنا واقف أنتظر مجيء هذا الترام . . .

وبعد قليل أقبل يتعثرٌ في إعياءٍ وجهد . وبينما كنت في
حيرةٍ من أمرى ، أقلبُ النظر باحثاً عن موضع لقدمي ، إذا بها
تمرق كالسهم النافذ بين الناس ، وتأخذ مكانها في مقصورة الدرجة
الأولى في غير عُسْر . فوقفت مشدوها . . . ولم تمض لحظةٌ
حتى وجدتني أثب في سرعه البرق ، فإذا أنا بجوارها . والتفتَ
كلُّ منا إلى صاحبه ، وتلاقتُ نظراتنا . وكان معنا في
المقصورة نفسها بعض الضباط الانجليز ، جالسين في أوضاعٍ
غريبة تثير الضحك والغيظ معاً ، قابضين بأسنانهم الصُّفْر على
« غلايينهم » الكريهة الرائحة ، وهم كالأصنام لا يتحركون .
فلم يُثر دخولنا اتباههم ، وظلوا على حالتهم ، تُنطق هيتهم باحتقار
شنيع لنا .

وحانت منى التفاتة إلى جارتى ، فالتقى بصرى ببصرها
مرة ثانية ، وابتسمنا . . . وكانت فتاةً وسيمةً الطلعة ،
خفيفة الحركة ، فى عينيها بريق يتكلم . فشغلتُ بأمرها ، وقام
فى نفسى أنها ليست غريبةً عنى مطلقاً ، وأنى لا بدَّ رأيتها
قبلَ هذه المرة . . .

وتلاقت عينانا مرةً ثالثةً ، وإذا كلُّ منا يُطيل التحديق
فى صاحبه ؛ ثم هتفتُ فى دهشة :
نَرَجِسُ . . . أهذا ممكن ؟
وسمعتها تجيبنى صائحة :
عبده بيه !

وشعرنا بأننا تجاوزنا الحدَّ فى رفع الكلفة بيننا ، وخشينا
أن نكون قد أقلقنا رفاقنا الضباط . فالتفتنا نحوهم ، فإذا
بهم غارقون فى جهودهم ، لا يعينهم من أمرنا شىء .
وأمسكتُ يدها ، وضغطتُها وأنا أقول :

اتفاق مدهش أن نلتقى هنا بعد انقطاع أعوامٍ مديدة !
وأخذتُ أرنو إليها طويلاً : يا لله ! فارقٌ عظيم ! أين
هذه العادةُ الجالسةُ بجانبى الآن ، تلك التى تتضوعُ تأنثاً وفتنةً ،

من نرجس أمس ، صَبِيَّةُ الأَزِقَّةِ وشريفة الطُّرُقَاتِ ؟ ...
وقلتُ وأنا أبتسم :

ما هذه « الشياكة » الجديدة يا نرجس ؟
فما إن سَمِعْتُ جملتي ، حتى أشاحتُ بوجهها ، وأخذت تتظاهر
بتصفيف شعرها ، وتنسيق قبعتها . ثم اعتدلتُ وقالت غيرَ
ملتفتةٍ إلىَّ :

إن اسمي الآن نوني ...

قللتُ على الأثر مردِّداً :

نوني !

— نعم نوني ... ألا يُعجبك ؟

اسم ظريف .

— وقد فتحنا أنا وأمي حانةً بشارع المهدي اسمها

« هايد پارك » ... تعالِ زُرنا .

— بكلِّ سرور .

وكان أحد رفاقنا الضباط يتجه — في هذه الفترة —

بنظرته وجِهَةَ النافذة ، فرأيته قد التفتَ إلى نرجس ...

وما إن وقع بصرُها عليه حتى صاحتُ مسرورة :

هالو ويلي !

ومدّت إليه يديها ، فأمسك بهما ، وهزّهما في تشوّق ،
وقال مُهَلَّلًا :

هالو نوني !

ورمقتني « نرجس » بنظرة كلّها زهو وتفاخر ، تكاد قسّماتها
تنطق قائلة : أرايتَ أصدقائي ، من أيّ الطبقات هم ؟
فابتسمتُ ساخرًا .

وكان موضع نزولي قد اقترب ، فقلت لها وأنا أتهبّأُ
لمغادرة الترام :

متى أستطيع أن أراكِ ؟

فأجابتُ في إهمالٍ لم تتكلّف معه أن تُديرَ وجهها إلى :

غدا في الساعة الخامسة مساءً إذا شئت !

وقفزتُ من الترام ، والغضبُ آخذٌ مني كلّ ما أخذ ، وسرتُ
أسائل نفسي في عجب : لماذا طلبتُ أن أزورها ؟ أبلغُ مني
الاهتمامُ بأمرها هذا الحدّ ؟ وهل نسيتُ من تكون هي ؟
ومن أي الأوكار درّجتُ ؟ وكيف كنتُ أعاملها قبل خمسة أعوام ؟

كانت « نرجس » صَبِيَّةً لا تتجاوز الثالثةَ عَشْرَةَ ، يَتِيْمَةَ الأب ،
 تظهر في الحارة التي كنتُ أسكنها في هيئة مَرْزِيَّة تَمُّ عن حياة
 فاقدة وَضَعَةٍ أو أنسى منظرها وهي تروح وتغدو مشعثة
 الشعر ، مغبرة الوجه ، لم تَمَسَّه بالماء منذ أشهر ؛ ملطخة القدمين
 بالوحل ، لم تعرف لها حذاءً من قبل ؟ . . . وما كنتُ أدري
 على التحقيق أية مهنة تزاو لها أمها ؟ ولكنني أدري أنها تُحيط
 بها غرامةٌ من الأسرار ، وتنتشر حولها أشتاتٌ من الأقاويل ! . . .
 كنتُ ، في ذلك الحين ، في الخامسةَ عشرةَ من عمري ،
 أقضى وقتَ فراغي بجوار نافذة غرفتي ، أغازل جاراتي
 الصغيرات من بعيد . فإذا ما فرغتُ من المغازلة انصرفت إلى
 أوراقى ، فأخذتُ أدبجُ رسائل الغرام ، جامحة الخيال ، كثيرة
 التزويق . وربما اضطررتني حماستى لعملى أن أسهر حتى ساعةٍ
 متأخرةٍ من الليل . وكانت « نرجس » ساعيةَ البريد بينى
 وبين صديقتى ، تحمل رسائل إليهن ، وتجلبُ ردودهن إلى .
 فأتعدها نظير قيامها بهذه المهمةِ بِمَنَحِ ضئيلةٍ تتلقاها ببشرٍ وارتياح .
 وكنتُ أحياناً أستعذب حديثها ، فأستزيدها منه ، وأنظر إلى
 وجهها مُحدِّقاً فتعجبني وسامته ، وتروقني نظراتها التي تنطوى

على شيء من الفتنة ؛ فبيعت صنيعى هذا فى نفسها لونا من
السرور الأعمى ، لا تملك معه إلا أن تترامى على ، وتنهال على
يدى تقبيلا .

وأخيراً شعرتُ بأن الفتاة قد بدأت تمتعض كلما كلفتها إبلاغ
رسائلى إلى الصديقات . . . ورأيتها مرة تتناول الرسالة من يدي
فى تلكؤ ، ولم تتحرك من مكانها ، فصرختُ فيها :

ماذا يدعوكِ إلى الوقوف والتباطؤِ فى تلبية رغبتى ؟

ودفعتُا بشدة ، فكادت تنكب على وجهها ، وخاطبتها فى
خشونةٍ قائلاً :

أستِ تتناولين منى ما فيه الكفاية ، نظير قيامك بهذا
العمل الهين ؟

— وهل تظنُّ أنى أفعل ذلك نظير نقودك ؟

— إذاً نظير أىِّ شيء ؟ . . . لا تطيلى الكلام . . .

اذهبي عني !

فلم تترجح من مكانها ، ونظرتُ إلى نظرة طويلة لم أفهم
معناها . أكان فيها عتاب ، أم توصل ؟ وشعرتُ بتهيّب

عجيب لم أشعر به من قبلُ أمام هذه المخلوقة الحقيرة ، تهيب
أقلقني وحيرني !

ورأيتها تنور دفعة واحدة ، فهوى على الرسالة تمزقها كل
ممزق ، وتقذف بها في وجهي . . .



توالت هذه الذكريات على خاطري سراعاً ، وأنا في طريق
إلى المنزل بعد مقابلي لـ « نرجس » في الترام .

واعترمتُ ألا أذهب إليها في الموعد الذي عينته لي . وفي
الغد أمضيتُ الوقت كعادتي كل يوم ؛ غير أني كنت ضيق
الصدر ، نائر الأعصاب ، لا تبرح خيالي حوادث « نرجس »
الماضية . فأقابل بين شريدة الأمس ، وغانية اليوم . حقاً لقد
أصبح تحولها شاملاً كل شيء ، حتى لكانها خلقتُ خلقاً
جديداً . . . وما شأنها بهذا الضابط الانجليزي ؛ وحانة
« هايدبارك » ! حسب المرء أن يسمع اسمها ، ليعلم في أي
الأغراض أنشئت ؟ وإني لتتمثل الحانة لمخيلتي ، وبجوار اسمها
ورقة مكتوب عليها بالحروف الكبيرة : In Bounds (1)

(1) مصرح للعساكر بدخول المحل

وظلت هذه الأفكار تتضارب في رأسي يومئذٍ كله ، حتى
دنت الساعة من الخامسة ، موعد « نرجس » ، فغيّرت رأبي فجأة ،
ونَهضتُ قاصداً « شارع المهدي » .

دخلتُ الحانة وأنا أرمقُ مُحَنَّقاً ساعةً يدي ، لقد تأخرتُ
ربع ساعة عن الموعد ، لِمَا أمضيتُه من الوقت أتأتق في اللبس
والهندام . ودرتُ بعيني في أرجاء الحانة فلم أجد أحداً . وكان
المكان واسعاً مُعْتَمِماً يسوده وَخَمٌ وَعُبُوسٌ . في الصدر مِنَصَّةٌ
عريضة مُعدَّة لَجَوْقَةِ الموسيقى ، تتراصُّ أمامها المناضد والمقاعد
على نظام عسكريّ ، فكأنني أرى قاعة طعامٍ في ثُكْنَةٍ . كل
شيء في الحانة مُبْتَدَلٌ لا يَنِمُّ عن ذوق أو فن .

وسرت بضع خطوات أتلفت هنا وهناك . وأخيراً وقع
بصري على مخلوق مُكَوَّم على مقعد ، مُلقى الرأس على
مِنْضدة . وسمعتُ حَشْرَجَةَ أنفاسه ، فصرختُ منادياً :

جرسون ! جرسون !

واستيقظ الرجل يتمطى في بشاعة ، ويمسح الأتربة المتساقطة

من فمه ، وحدجني بنظرة شرراء قائلاً :

ماذا تريد ؟

— أخبر نرجس . . . أقصد مدموازيل نونى . . .

بأنى هنا !

فنظر إلى فى ازدرء ، وقال :

من حضرتك ؟

— قل لها : عبده بيه .

فهرش رأسه ، وقال وهو يتشاءب :

المدموازيل ليست هنا . . .

فقلتُ محتدًا :

ليست هنا ! كيف ؟ يظهر أنك مازلتَ نائمًا . . . عندى

موعد معها ، أسمعُ أنت ؟

— موعد أو غير موعد . . . المدموازيل ليست هنا . . .

فكظمتُ غيظى ، وقلتُ :

ومتى تحضر ؟

— بعد الساعة .

— قلت لك إنى على موعد معها فى الخامسة .

— وأنا مالى !

وأولانى ظهره وسار ، فصحتُ به قائلاً :

أحضرت لي واحد بيعة مثلجة حالا .

... ولا أدري كيف استطعت أن أمكث ساعتين في هذا المكان الكريه ، وأنا لم أفارق منضدتي ، منتظراً « نرجس » ؟ وكيف سَوَّلت لي نفسي احتساء أربعة أقذاح من هذه « البيرة » الغثة ؟ ! وكيف لم يَقُمْ في نفسي أن أترك المكان لأعود إليه في الساعة السابعة ، ما دام الرأي قد استقرَّ على مقابلي إياها مها يكفني الأمر ؟

وفي هذه الفترة حضر بعضُ العساكر الإنجليز بوجوههم المجتفنة ، ومِشيتهم الصلبة ، يقرعون أرض الحانة بخطواتهم الثقيلة المرتبة ، كأنهم في ساحة عرض . كانوا يجلسون حول المناضد يكرعون « البيرة » في شره ، وتنطلق من أفواههم بفتنة بعض الصيحات ، ثم يخيم عليهم الصمت . وقد يصعد أحدهم المنصة ، ويُغني عازفاً على البيان بصوت أجش رهيب ، فيردد رفاقه مقاطع غنائه في وقار وتخشع ، فتتراءى لي الحانة كأنما انقلبت إلى كنيسة يصلّي فيها قسيس على ميت ، والناس من حوله يُرتلون أدعيتهم ضارعين !

وأخذت الحانة تمتلئ رويداً بهذا الصنف « الخاكي » من

عباد الله . . . وتعالى الضجيج شيئاً فشيئاً وهو يعتقد في الجوّ
مع سحاب الدخان الكريه الرائحة .

ولم أر مطرباً غيرى في هذا المكان على كثرة من فيه ،
كلهم « خاكثون » بلا تمييز . . . فإذا وقع بصر أحدهم على
— وأنا قابع في ركني ، وأقداح « البيرة » أمامي — أطلق
من فيه ضحكة ساخرة ؛ ثم أهمل أمرى ، ولم يعد ينظر إلى !
وبينا أنا مستغرق في وحدثي ، والغضب آخذٌ مني كل ماخذ ،
إذ ظهرت « نرجس » مرتدية ثوباً نصيفياً من الحرير الأبيض ،
و « سترة » تماثل ما يلبسه الضباط . ظهرت تتلألاً في ذلك الجوّ
العابس ، كما يتلأل النجم في الليلة الخالكة الإهاب . . .
وراحت تنقل بين الموائد تنثر ابتساماتها يميناً ويسرة ، كأنها
تنثر الأزاهر الناضرة . فيقابلها الجمع بالبشر والتهليل ، ويحتجزها
بعضهم وقتاً يغمرها فيه بكلمات الإعجاب . وقد يمسك أحدهم
يدها فجأةً ، فيغتصب منها قبلة يودعها أنفاسه الحارة الظمأى .
. . . وكانت ترحب بهم جميعاً في رشاقة ، وتبادلهم النكات
في ظرف ، وتضحكهم وتداعبهم في سحر وإغراء . فينقلب ذلك
المكان الخائق حديقةً غناءً يراوحها نسيم لطيف يُنعش القلوب !

وقد لمحتني « نرجس » من بعيد ، ولكنها تجاهلت وجودي
وظللت تحتني بضيوفها « الخاكئين » حتى لم يبق منهم أحد إلا
وقد جَظِيَ منها بقبلة أو ابتسامة أو نظرة . . . وكانت قد اقتربت
من منضدتي ، فرفعت بصرها إلي ، وتظاهرت بالدهشة ،
ثم قالت وعلى فيها ابتسامة صغيرة :

أنت هنا ؟

ومدت إلي يدها مترخية ، كأنما تريد أن تحملني على تقبيلها ،
فلمست أناملها لسا ، وابتسمت في جفاء وأنا أهدجها بنظرة
ملتهبة . فأمالت بصرها عني ، ثم أخذت بيدي وأجلستني في
ركن منعزل ، وجلست على طرف المنضدة ، ووضعت ساقاً على
ساق ، ثم أشعلت لفافة ، وقالت وهي تنفث الدخان في إهمال :
متى حضرت ؟

— منذ ساعتين ، وفق الموعد الذي اتفقنا عليه

وسرعان ما أسفت لتعجلى في إعلان تلك الحقيقة ، وأردت
أن أستدرك قولي ، لافهمها أني لم أحضر إلا منذ دقائق . ولكن
عصاني فمي ، ولم يتحرك لساني بحرف . أمّا هي فقد هزت رجلها
في عبث ، وأطرفت برأسها تقول :

هل اتفقنا على موعد ؟ . . . لا بد أن يكون هناك سوء
تفاهم !

فلم أُجب ، وصحت بـ « الجرسون » ودفعتُ له الحساب في
الاحتياج ، وقلت لـ « نرجس » وأنا على أهبة الخروج :
أورقوار !

فأمسكتُ بذراعى ، وقالت :
اجلس . . .

وتبيّن لي التوسلُ في لهجتها ، فأجبتها وما زلتُ معتزماً أن
أغادر المكان :

ماذا تريدن ؟

— اجلس ، اجلس !

وكانت وهي تقول ذلك تدفعني إلى الكرسي ، مبالغةً في
التلطف والمداعبة . فجلستُ ، ورأيتها تجلس على ركبتى في جراءة
غريبة ، وأخذتُ تُرَبِّتُ خدى وتقول :

ألا تطلبُ لي شيئاً ؟

فقلت وأنا على جفوتى :

ماذا تريدن ؟

— ما يروقك !

— فنجان قهوة ...

فقهت ، ولاحظتُ أن ضحكها كانت طبيعيةً لا تخلو من سذاجة الأطفال ، فضحكتُ أنا أيضاً . وراحت تقول :

خليك ذوق يا شيخ ، وكن كريماً مع السيدات !

وصفقتُ تطلب الخادم ، ثم أمرتُ بزجاجة شيمانيا دون أن

تستشيرني ، فنظرتُ إليها مشدوهاً ، فقالت على الفور :

أيسوهك أن أشرب معك كأسين من الشيمانيا ؟

— كلا ...

وبدأنا نحتسى أكواب الشيمانيا ، وازدادت « نرجس » تَلَطُّفاً بي ، وكان حديثها معي خالياً من الإدعاء والتصنع ، يُفصح عما انطوت عليه نفسها من صفاء . فعجبتُ لأمرها ، ولكنني شعرتُ بارتياح كبير وأنا بجانبها ، فبادلتها الود ، ومضيتُ أشربُ معها في مَرَحٍ وإيناس ، وأخذتُ تحدّثني عن أشياء كثيرة ، عن الحانة ، عن ضيوفها الإنجليز ، عن أثوابها ... إلى غير ذلك مما يحيط بها من مظاهر الحياة . وكانت — فيما تحدّثت — جِدَّ تافهة ، بيد أني كنتُ أُصغى إليها في شغف

وإقبال ، وأتلقى حديثها كما يتلقى المحروم أطيبَ الطعام . وهي
في الفترة بعد الفترة تُرسل النكات عذبةً سائغةً ، تُتبعها بضحكاتٍ
رنانة في خفة وطرب .

وكنا في معزلٍ عن كل شيء ، لا نُحسُّ الضجةَ القائمةَ
حولنا ، تلك الضجة التي كانت تخترق الجدران عابثةً يُقلِقُ
الحىَّ بأكله ، إذ يختلط فيها الصياح والعريدة ، بالموسيقى والغناء ...
لم نكن نُحسُّ إلا وجودنا ، ولا نسمع إلا لفظ أصواتنا وقهقهة
ضحكنا ، ولا نرى في ذلك المكان الزدحم بمختلف الوجوه إلا
وجهينا نحن . . . يا لله ! ما أروعها من ساعةٍ تلك التي قضيتها
مع « نرجس » في ذلك اليوم ! لقد كشفت لي عن حقيقة
نفسها ، فإذا هي ما زالت تلك الصبية الوديمة الوقية التي تحمل
بين جنبها ذلك القلب الطهور !

ولاحظت أنها لم تُشر إلى ماضيها من بعيد أو قريب ، وكما
انساق الحديث من تلقاء نفسه إلى هذا المتجه ، أُسرعتُ فحوَّلته
في لباقة عن طريقه . فاحترمتُ رغبتها ، ولم أنبئ بكلمة تمسُّ
ذلك العهد البائد

وفيا نحن في ملكوتنا نسبح لاهين ، إذ طرق سمعى صوت

أجشُّ ينادى صديقتي ، فرفعتُ رأسي ، فإذا بي أمام سيدة ،
بادنة ، ترتدى السواد في احتشام مزيف ، مخضبة الوجه بشكل
زريّ . . . لقد كانت أمها ، عرفتُها من أول نظرة ، أما هي
فلم تعرفني ، أو تظاهرتُ بأنها تجهلني . ولما قدّمتني إليها ،
حنتُ رأسها في تكلف ، ورمقتني بنظرة بغيضة كأنها تقول :
ما لهذا الأجنبيِّ وما لنا؟! !

وكانت « نرجس » في حالة غير طبيعية ، حالة شخص كان
نائماً نوماً مغنطيسياً وقد بدأ يستيقظ ، عائداً الهويّيني إلى حالته
الأولى ؛ كانت تنظر إلى نظراتٍ مريبةٍ هي خليط من ذهول
وامتماض ، يبدو على حركاتها بعض الارتباك . فهل هي تأسف
على ما كان منها معي ؟ أم هي تحاول إخفاء ما يخالج قلبها من
شعور غامض دفين ؟

وانحنيتُ أمها عليها تُسرِّ إليها بضع كلمات ، ففهمتُ أن الوقت
قد حان لأن تتركني . ورأيت « نرجس » تمدّ إلى يدها ،
فأخذتها في يدي ، وانحنيتُ عليها ، وقبلتها قبلةً حارةً طويلة .
ولما رفعتُ رأسي ، وجدتها تحدّق فيّ ، كأنها تسألني : أحقّ أنت
نفسك الذي قبّلت يدي ؟ ووقفنا برهةً وجهاً لوجه ، وعيوننا

مُتقابلة ، كأننا قد وَصَلَ بينها تيار كَهْرَبِي . وما هي إلا أن
شَعَرْتُ بها تجذب يدها من يدي ، وقد نَحَّتْ نظراتها عني ،
ورفعتُ رأسها المتَهَلَّلَ بالبشر ، وقالت في لهجة انتصار :

أورفوار ، عبده !

فأجبتها :

أورفوار ، نوني !

وإذا بها تبتعد مخفيةً بين المناضد ، وهي تُلَوِّحُ لي بيدها ،
والابتسامةُ تَرِفُ على ثغرها الدقيق ...

وغادرتُ الحانة ، يَعْجَجُ رأسي بمختلف الأفكار ، وتجيش نفسي
بشَّتِي العواطف ... يالَسِحْرَ هذه الفتاة ! إنها بدعة فنية صاغها
الله فتنةً للبشر ، ولكن أية حياة تحياها ؟ وفي أي الأوكار
تعيش ؟ إنها زهرة تنفّس في حظائر الدواب !

... .. وبدأتُ ذِكْرِيَّاتِ الماضي تغزو رأسي ، فترأتُ
لي « نرجس » القديمة ، شريفة قدرة ، مهلهلة الثياب ، تعدو في
الحارة بشعرها الأشعث . رأيتها تدنو مني ، وتسير متبخرةً
أمامي ، ثم ترفع إلى فمي يدها ... يدها المشققة الوحلة ،
وتقول في غطرسة مُنْكَرَة : قبلها ! ... فإذا بي أدفعها دفعا
شديداً ، وأنهرها بقسوة !

وانتهتُ نفسي من غفوتها ، فإذا بي ضيق الصدر ، ناثراً
الأعصاب . وخطر ببالي أن أعود إلى حانة « هايد بارك »
وأن أستدعى إلى « نرجس » على الفور . . . وطرق سمعى في
ذلك الوقت صوتٌ متزنٌ يردد : « وَن . تو . ون . تو »
يصحبه خفقٌ أقدام منتظم ، فالتفتُ فإذا بدوريةً صغيرة من
بوليس الجيش الإنجليزي تجتاز الشارع ، فلم أولها شيئاً من اهتمامي ،
وتابعتُ سيرى إلى منزلى ، يتخايل أمام عينيّ في اختلاطٍ
شبهان متناقضان لـ « نرجس » اليوم و « نرجس » أمس !

وأضيتُ اليوم التالى على مألوف عادتي ، معتبراً ما وقع لى
في أثناء زيارتي للحانة أمس شأنًا من الشؤون الجارية التي
لا تستحقُ كبيرَ اهتمام . ولكن ما كاد يحلّ المساء ، وتدنو
الساعةُ من الثامنة ، حتى كنتُ في حانة « هايد بارك » في
مكان أمس ، أمامي قدحٌ من تلك « البيرة » الرديئة أكرعه
على مهل !

والفيتها بين جماعة من الجند سُكارى ، تُفنى معهم
أغنيةً معروفة . وكانوا يناوشونها ، فتجيبهم بحركات خليعة .
أما ملابسها هذه الليلة ، فكانت تماثل ملابس « الإيقوسيين » ،

يساقاها المستويتين البديعتين في لونهما الخمرى تظهران بين فترة
وأخرى كلما حَرَكَتُ قدما ، أو استدارت في وَقْفَتها على نَمِّ
الموسيقى . . . كذلك كانت قَبَّعْتُها « إيقوسية » يغلب على الظن أن
ضيفاً من ضيوفها أعارها إياها ، كانت تضعها معوجة في
رشاقة على رأسها الصغير ، وخصائل شعرها المتعوج مهذلة
على كتفها !

وألفتني قابلاً في مكاني لا أتحرك ، فابتسمت ، وحيثني
على البعد تحيةً عابرة ، ثم تابعتُ غناءها وعربدتها مع رفاقها
الجنود . ورأيت البعض يجتذبها ويقبلها ، فلا تتمنع ولا تردّ يداً ،
تتصايح في طرب ، وقدح الجعة في يمناها تلوح به .

وبعد طول انتظار رأيتها تتجه نحوي ، وكانت تسير متمهلة ،
وقبعتها « الإيقوسية » منحرفة على جبينها تكاد تنزلق عنه ...
أقبلتُ إلى ، جلستُ على طرف المنضدة بجوار الأقداح الأربعة
التي فرغتُ منها ، ووضعتُ رجلاً على رجل ، وقالت في لهجة
لا تخلو من دُعاة :

لقد أصبحت من رُوَاد الحانة !
فاضطجعتُ على مقعدى ، وأخذتُ أنفثُ دخان لِفَافَتِي ،

وأشمخ بأنفى ، كأنى أمير من طفاة العصر القديم ، وأجبتُها بقولى :
أيسواكِ هذا ؟

— بالعكس... أهلاً وسهلاً !

ورأيتها تنزل عن المنضدة ، وتقرب منى ، فما شككتُ أنها
ستجلس على ركبتى كما فعلتُ أمس . ولكنها توقفت فجأة ،
وأخذتُ تُسوى ثوبها ، أو فى الحق تتصنعُ تسويتَه . ودارت
دورةً حولى فى خطوات بين إقدام وإحجام ، ثم إذا بها تحطف
طربوشى ، وتلبسه بدل القبعة « الإيقوسية » ، واندفعتُ تضحك ،
وهى تتثنى فى مشيتها... وعلى الرغم من ذلك المرح الظاهر ،
الذى يصبغُ حركاتها ، كنتُ أحسُّ أنها تكتم فى دخيلة نفسها
شيئاً ، شيئاً يُقلِّقها ويشغلها...

وعادتُ إلى المنضدة ، وجلستُ على طرفها ، ومضتُ تهزُّ
قدميها ، فقلتُ لها وما زلتُ مضطجماً فى مقعدى :

ألكِ فى بضع كؤوس من الشمبانيا ؟
فبادرتنى بإشارة رَفْض رائعة ، وقالت :

كلا...

— إذن.....؟!

— فنجان قهوة !

فاتفجرتُ ضاحكا بالرغم مني . أما هي فأجابتُ :

أليس لي الحق في أن أطلب فنجان قهوة ؟

— طبعاً . . .

— خصوصاً بعد احتسائي أربعة أقداح من « البيرة » ،

وأربعة من « الويسكي » !

— تريدن أن تُفريقي . . . ولا سيما لأنكِ معي !

فبوغتتُ ، إذ شعرتُ بأني قد أصبتُ حقيقةً تُخفيها في

نفسها ، ولكنها تجلّدتُ ، وصاحت بـ « الجرسون » قائلةً :

زجاجة شمانيا في الحال !

وأخذتُ تشرب الكأس إثر الكأس ، وهي ترسل الضحكات

متواصلة . فأمسكتُ بيدها ، وجعلتُ ألاطفها ، وأدقق النظر

فيها . ولا أدري ما الذي جعلني أفكر هذه اللحظة في يدها

القديمية ، يدِ « نرجس » منذ خمسة أعوام ، وأوازنُ بين اليدين . . .

وسمعتها تقول :

أتعجبك يدي ؟

— يا لها من يدٍ رخصّةٍ ناضرة . . .

ورفعتُ بصرى إليها ، وجعلتُ أكرّر جملي ، وأنا أتنغمُّ

(٧)

بالفاظى ، وأترنم بها ، والابتسامة ذات المعانى المستترة تتلاعب
على فمى . وأدركتُ أنها فطنتُ إلى ما أرمي إليه . فقالتُ
متباطئةً وقد أسبلتُ جفنيها :

لماذا لا تُقبِّلها كأس ؟

فصتُ برهة ، ثم وضعتُ يديها على المنضدة فى هدوء ، وقلتُ :
حقاً لا أدرى لماذا !

وجعلتُ أرنو إلى فمها الدقيق الفاتن ، وأنا أهيبُ نفسى لاقتحامه ،
أريد أن أتناوله بين أسناني ، لا لأقبِّله ، بل لاشبعه تمزيقاً !
وأدركتُ على التَّوَّ ما يجول بخاطرى ، فأعجَلتُنِي قائلَةٌ :

إياك أن تفعل !

— لماذا ؟

— لأنى لا أريد !

— ولماذا تسمحين لرفاقك «الخاكين» بما تمنعيني منه ؟ وكيف ؟

— هذا شأنى !

— وإذا اغتصبتُ القبلة اغتصاباً ؟

— خاطرتُ بحياتك !

قالت ذلك ، وقد تحفَّزتُ كالنمرَّة تحمى نفسها . ورأيتُ
جماعةً من الجند وقد راہم حديثنا ، فأرهنفوا السمع لنا ،

وشدّدوا الرقابة عليا ، وأخذوا يرمونني بقنابل من عيونهم
المتلتهبة . فقلت لـ « نرجس » وأنا أتضحك :

وهل تظنين أني أقبل فضلات هؤلاء . . . ؟ رحم الله أيام زمان !
وما كدت أتمّ جلتي ، حتى وجدتها قد وثبتت عن المنضدة ،
ووقفت وقفة صلبة ، والشرر يتطاير من عينيها . ثم صاحت مناديةً :
تومي !

ورأيتُ مارداً إنجليزيا قد نهض من بين الحفل . . . وفي
خطوتين جبارتين كان أمامها ، فأشارت إلى قائلة له :
ألقه في الخارج . . .

وقبل أن أستعدّ للمقاومة ، وجدتُ نفسي في طرفة عين
مُلقى على الرصيف ، أتحمسُ الموضع الذي يؤلني من جسدي . . .
وقتُ وأنا معتزمُ العودة إلى الحانة ، للانتقام لنفسي .
ولكنّ يداً امتدت إليّ ، وصوتاً قال لي :
إلى أين . . . كن عاقلاً يا أفندي !

فإذا هو شخص من « أولاد البلد » تبين لي من لهجته
الإخلاصُ والنصح . فأخذ بيدي ، وسار بي حتى آخر الشارع ،
وهو يدكّرني بالأحكام العرفية وسيفها المصّلت على رقاب الناس .

وَفَضَّلْتُ أَنْ أَعُودَ إِلَى الْمَنْزِلِ مَتْرَجًّا . وَكُنْتُ فِي أَثْنَاءِ
الطَّرِيقِ أَفَكِّرُ فِي وَسِيلَةِ لِلانْتِقَامِ مِنْ « نَرْجِس » وَرَفِيقِهَا الْعَمَلِاقِ .
وَكَانَ رَأْسِي كَأَنَّوْنَ يَتَلَهَّبُ ، بِالرَّغْمِ مِمَّا كَانَ يَهْبُّ عَلَى وَجْهِهِ
مِنْ نَسِيمِ اللَّيْلِ الْبَارِدِ

وَوَلَجْتُ بَابَ الْبَيْتِ ، وَمَا كَدْتُ أَخْطُو خَطَوَتَيْنِ فِي فِنَاءِ
الْدَّارِ حَتَّى رَأَيْتَهَا . . . رَأَيْتَهَا أُمَامِي ، كَانَتْ هِيَ بَعَيْنِهَا حَقِيقَةً
لَا خِيَالًا ، تَتَّبَعُ أَنْفَاسُهَا فِي جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ . خَيُوطٌ مِنَ الْعَرَقِ
تَسْبَحُ عَلَى وَجْهِهَا ، وَعَيُونَ مَضْطْرِبَةٌ نَاطِقَةٌ بِالْأَلْمِ وَالْفَرْعِ

وَقَفْتُ أُمَامِهَا أَغْلِي مِنَ الْغَضَبِ ، مَتَأَهَّبًا لِلانْقِضَاضِ عَلَيْهَا .
وَرَأَيْتَهَا تَتَقَدَّمُ مِنِّي فِي خُطًا وَئِيدَةٍ ، وَهِيَ مُتَخَاضِعَةٌ كَكَلْبٍ ذَلِيلٍ
يَحَاوِلُ اسْتِرْضَاءَ صَاحِبِهِ . وَهَبَطْتُ عَلَى رِكْبَتِي ، وَأَخَذْتُ
تَحْتَضِنُهَا وَتَقْبَلُهَا . وَسَمْتُ صَوْتَ نَشِيجِهَا الْحَارِّ يَعْلُو رَوِيدًا
وَإِنَّمَا لِكَذَلِكَ ، إِذْ أَخَذْتُ بِوَجْهِهَا ، فَرَفَعْتَهُ نَحْوِي ، فَتَلَاقَتْ
عَيْنَايَ بَعَيْنِهَا الْبَاكِيتَيْنِ ، عَيْنِهَا اللَّتَيْنِ تَتَمَثَّلُ فِيهِمَا رَهْبَةُ التَّكْفِيرِ
وَطَلْبُ الْمَغْفَرَةِ

وَأَحْسَسْتُ اضْطِرَابًا يُفَاجِئُنِي ، وَتَخَاذُلًا يَشْمَلُنِي

ثُمَّ وَجَدْتُنِي أَفْتَحُ لَهَا ذِرَاعِي ، فَارْتَمَتْ فِي أَحْضَانِي .
وَكَانَتْ قِبَلَاتُ نَهْمَةٍ ، وَكَانَ عُنَاقُ طَوِيلٍ !

الفصل الثالث

« رسالة من « سعاد » المقيمة
في القاهرة ، المتزوجة بـ « سامح بك » ،
إلى صديقتها « سميرة » المقيمة في « باريس »
المتزوجة بـ « عادل بك » أحد رجال
السلوك السياسي » :

القاهرة في ١٨ من يناير سنة ١٩٢٩ م

عزيزتي سميرة :

لم أكتب إليك منذ أمد طويل ، بعد أن كانت رسائلي
متواترة كل أسبوع . وهذا تقصير شديد لا أغتفره لنفسي .
وما أنتِ ذِي قد منعتِ عني رسائلكِ ، بعد يأسكِ مني ،
وأرسلتِ تسألين الأقرابَ والصواحب عما دهاني . وما زلتُ
أحمل في محفظتي كتابك الأخير الذي أشبعتني فيه تعنيفاً . . .
يحقُّ لك يا صديقتي أن تغضبي ، ولكن لو علمتِ ما أنا فيه
لعدرتني !

ها أنا ذى أخرج من صمتي ، وأكشِف لك عن مكنون قلبي .
إننى فى حاجةٍ إلى الكلام ، بعد هذا السكوت الطويل ؛
إلى الكلام مع صديقةٍ مثلكِ تفهمنى وافهمها
إذا فاسمعى :

لعلك تَعَجِّبين إذا صارحتكِ - بالرغم من كلِّ الظواهر التى
تُكذِّبُ قولى - بأن حياتى الزوجية التى كنتِ تعتقدين أنها
مثالُ السعادة والهناء ، لم تكن فى الواقع إلا رمز التَّعَس والشقاء !
هذا اعتراف لم أخبرك به من قبل ، واليوم أقصَّ عليك
نبأه ، إذ جاء حينه :

ستة أعوام قضيتها مع « سامح » وأنا أشعر بفراغٍ عظيمٍ يحيط
بى ، فيخيِّل إلى أنى حبيسةٌ فى قصر من القصور الخرابَةِ الموحِشةِ
التي يُنحِمُّ عليها الصمتُ والظلام ؛ فكنتِ أرتجف مذعورةً
أبحث عن نور أضىء به ظلمةَ نفسى ، وعن سلوةٍ أشغل بها
فراغَ حياتى

أراك الآن تنظرين إلى متعجبةً حائرةً ، وتسأليننى فى جزعٍ :
أسمع حقاً هذا الكلام من صديقتى « سعاد » الزوجة التى
يحسدها الناس جميعاً على زوجها ؟ أليس « سامح » هذا هو

الزوج الطَّيِّعَ العَفِيفَ اللِّسَانَ ، الذي يشبه قلبه في تقائه وطهارته
قلبَ الطفل الصافي ؟

أجل ، يا « سَمِيَّة » ، هو كذلك وأكثر من ذلك . وإني
لَأَعْجَبُ من نسي كيف لم أَحِسَّ لهذا الزوج الكامل بأوفر
حُبِّ في الوجود ؟ . . . إنه ليستحقُّ مني أن يملأ قلبي كله .
ولكن ، وأسفاه ! . . . كنت أشعر نحوه بفتور غريب لا أفقه
له سبباً . ولا أعالي إذا قلتُ : إن ذلك الفتور كان ينقلب في بعض
الأحيان إلى شيء من الكره . يا لله ! كيف يتسنى لي أن
أقول ذلك عن « سامح » ؟ !

وكثيراً ما رأيت صامته منظويةً على نفسي ، أنفُضُ هَمِّي
الخطي ، فيُقبِلُ على هاديِّ التبشيم ، ويتلطف بي كلَّ تلطف ،
ويسألني عن سبب صمتي ، وعلة انقباضي ؛ فأصرخ في وجهه :
ألا يحقُّ لي أن أصمتُ برهةً من الزمن ؟ فينظر إليَّ مبهوتاً ،
ثم ينصرف عني خَجِلاً . فلا ألبث أن أستدرك جنفوتي ، فأنهض
إليه أسأله العفو ، معتذرةً بأنني مريضة أشكو الصداع ، وأن
حبي له لا يقدر ! . . . ثم أحتضنه وأقبله ؛ وأية قبلات هذه
التي أطبعها على جبينه ؟ لقد كنتُ أغتصبها من فمي اغتصاباً !

فَإِذَا مَا خَلَوْتُ بِنَفْسِي ، فِي حَجْرَتِي ، أَطَلَقْتُ الْعِنَانَ لَفِيضِ
الذَّمِّ !

وما رأيتُ يا « سُمَيَّة » في أني كنتُ أخاصمه أياماً بلا سببٍ
قطّ . . . وأشعر في دخيلة نفسي بلون من السعادة الوحشية عندما
أجده متحيراً مهموماً . ولشدّ ما حاول إرضائي في ذلّة وخضوع ،
فلم يلق مني إلا النفورَ والإياء . لقد كانت هذه المحاولاتُ مما
يثير غيظي منه ، وسُخْطِي عليه !

فَإِذَا حَدَّثْتَنِي صَوِيحِبَاتِي عَنْ خِيَانَةِ أَزْوَاجِهِنَّ لهنَّ ، وَرَوَيْنَ لِي
قِصَصَهُنَّ فِي حَيَاتِهِنَّ التَّاعِصَةَ الْقَلِقَةَ ، وَغَبَطْنِي عَلَى حَيَاتِي
السَّعِيدَةِ مَعَ زَوْجِي ؛ الْوَفَى عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي كَيْفَ لَا أَشْعُرُ بِهَذِهِ
السَّعَادَةِ الَّتِي أَحْسَدُ عَلَيْهَا ؟ !

وَحِينَ أَنْفَرَدُ بِزَوْجِي أَسْأَلُهُ :

أَحَقًّا لَمْ تَخْنِي يَا سَامِحٌ ؟

فَيَنْظُرُ إِلَيَّ مَبْهُوتًا ، وَيُجِيبُ :

وَهَلْ تَشْكِينٌ فِي ذَلِكَ يَا سَعَادُ ؟

— لَمْ تَخْنِي مَرَّةً وَاحِدَةً ؟ !

— مَا مَعْنَى ذَلِكَ ؟ إِنَّكَ بِلَا رَيْبٍ تَرِيدِينَ إِغْضَابِي !

وأميل عليه وبني إحساس غريب غامض ، فأقول له هامسةً :
حدّثني عن شيء من ماضيك !

— ماضِيّ؟ . . .

— أجل ، ماضيكَ قبل الزواج ، وعلاقاتك بعشيقاتك .

أزور لي دقائق أسراركَ !

فينظر إليّ متحيراً ، ويقول :

ماذا تقولين يا سعاد ؟ أنت مجنونة !

وأطوّقه بذراعي ، وأقول له :

أجِبني إلى ما أريد . . . لا تخش بأساً !

— ليس لي ماضٍ أرويه لكِ . هذا شيء لا يصح أن

يتحدث به زوجان . . .

فأقوم نائرةً ، وأمضي إلى غرفتي ، وأردّ بابها بشدّةٍ على .

هذا ما كان يجري فيما مضى . . .

أما اليوم فأمرى عَجَب ! . . . أضغى إلى كلِّ إصغاء :

منذ بضعة أشهر بدأت أنكر من « سامح » شيئاً من التغيّر ،

تغيّر تزايد على تعاقب الأيام . لاحظت عليه أولاً ميله الجديد إلى

الموسيقى ، بعد أن عرفته يهرّب من الحجرة التي أدير فيها « الفونوغراف » ،

وأصبح يَحُصِّنِي على سماع «الرَّذِيو» إلى جانبه كلَّ ليلة حتى منتصف الليل ، بعد أن أَلْفَتَهُ يُغْلِقُ عليه غرفة مكتبه ، فلا يتركها إلا قُبَيْلَ الفجر ، منهوكَ القوى من بحوث قضاياه . . . ووجدته يُعْنَى بملابسه ، ويدقُّ في تخيُّر القميص ورباط الرقبة اللذين يلائمان لونَ حُطَّتِهِ . ثم راح يملأ منضدة الزينة بألوان العطور والدهان . ولا يخرج من المنزل إلا كالزهرة العَبِقَّة ، تملأ الجوَّ حولها أَرْجاء طيبًا . . . ورأيته يُطِيلُ النظر في عينيَّ وهو يبتسم في غموض ، فأحسَّ قوةَ حارَّةٍ تنبعث من شفَّتيه ، حتى إذا ما اقترب مني يريد تقبيلي ، شعرتُ باسترخاءٍ وتَفَتَّرُ ، وأغمضتُ عينيَّ في استسلامٍ لذيذ .

وقال لي مرَّةً : إنه سيتغدَّى اليوم مع «رشدى بك» ابن عمه . وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، دقَّ التليفون ، وكان «رشدى بك» هو المتكلم ، فرغِبَ إليَّ في أن أُبلِّغَ زوجي بعض الشؤون . . . وسرعان ما علمت أن «سامح» كذَّبَ عليَّ . . . يا لله ! أول كذبة أخذتها عليه ، في حياتنا الزوجية . فكانَّ أتونا حاميا قد اتقدَّ دفعةً في قلبي . وقضيتُ الوقت أنتظره ، وأنا أروح وأجىء في الرذهة كالنميرة الهائجة . وفي الساعة السابعة حضر ، دخل

يُغَنِّي وَيُهَيِّزُ سِلْسَلَةَ سَاعَتِهِ ، وَمَا كَادَ يَخْطُو بَضْعَ خَطَوَاتِ ،
حَتَّى بَرَزَتْ لَهُ وَجْهًا لَوْجَهُ ، وَقَلْتُ :

لَمْ تَتَفَدَّ مَعَ « رَشْدِي بِكَ » الْيَوْمَ . . . لَا تَحَاوِلْ أَنْ تَنْكَرَ !
فَنَظَرَ إِلَيَّ بَرَهَةً نَظْرَةً فَاحِصَةً ، ثُمَّ ائْتَفَقَ يُقْبِقُهُ . فَأَمْسَكَتُ
بِيَدِهِ ، وَشَدَدْتُ عَلَيْهَا ، وَقَلْتُ :

كَيْفَ تَجْرِئُ أَنْ تَكْذِبَ عَلَيَّ ، وَتَمْحُونَ ثِقَتِي بِكَ ؟
نَخَفْتُ مِنْ ضَحِكِهِ ، وَهُوَ مَا بَرِحَ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظْرَاتِهِ الْعَمِيقَةَ ،
الْمُفْعِمَةَ بِالْإِحْسَاسَاتِ الْمَلْتَهَبَةِ . وَقَالَ فِي هَدْوٍ :

يَا اللَّهُ . . . يَدُكَ بَارِدَةٌ !

— أَخْبِرْنِي : أَيْنَ كُنْتَ ؟

— عِنْدَ صَدِيقٍ لَا تَعْرِفُونَهُ !

— سَمَّيْتَهُ لِي . . .

— مَا دَمْتُ لَا تَعْرِفُونَهُ ، فَلَمْ أَنْ تَسْمِيَهُ بِمَا شِئْتُ !

— أَنْتَ وَغَدٌ . . .

— بَدَأْنَا تَتَشَاوَرُ الْآنَ حَقًّا !

— لِمَاذَا كَذَبْتَ عَلَيَّ . . . أَجِبْ !

— ولم تقولين : « أجب » ؟ . . . مع أنى سأجيب
بالطبع . . .

— كذاب ، منافق ، خائن

— أحمًا أنا كذلك ؟ !

— وأكثر من ذلك !

— شكرًا . . .

— أجب . . . لماذا كذبتَ عليّ ؟

— لم أ كذب عليكِ مطلقًا . كان في نيتي أن أتناول

الغداء مع « رشدي بك » فغيرتُ رأبي . وذهبتُ عند

غيره . . . أليس المرء حرًا فيما يفعل ؟

— وقد شربتَ معها كثيرًا من الشمپانيا . . .

— إن حاسّة الشم عندكِ يا سعاد أصبحتُ تفوق حاسّة

الشمّ عند القطط !

— كفى يا خائن . . . سأريكِ ! . . . ستري !

واندفعتُ أضربه على صدره بكلتا يديّ ، حتى انتثرتُ

أزرار صيدارِهِ ، وجذبتُ سلسلة ساعته فرميتهُ . وكنتُ

أضرب الأرض شاتمة صائحة ، وهو لم يحرك في أثناء ذلك
كله ساكناً . . . بل مضى يبتسم ، وتركني أفعلاً ما أريد .
وبغته أمسكني بئسف ، وأخذ يحدق فيّ بنظرة القوي ،
وقال متمماً :

ما أروعك في غضبك يا سعاد ! . . . دعيني أتأملك ! . . .
ثم أقبل علىّ يقبلني في تلثف واهتياج . . . يقبلني في
عنقي ، في عيني ، في فمي ، في كل موضع تقع عليه شفتاه ! . . .
يا لله ! شداً ما كانت شهيةً هذه القبلات العنيفة ، هيهات
أن أستطيع وصف وقعها في نفسي !

. وكررت الأيام ، وازدادت حياة « ساحح »
غموضاً ، وأصبح لغزاً أعيايني أن أصل إلى حله . ولم يكن عنده
من جوابٍ على حيرتي ، سوى ابتسامته الغريبة السائحة !
وحدث مرة ، ونحن جالسان ندخن ، أن باغته بقولي :

سامح . . . إني سأخونك !

فنظر إلى مبتسماً ، وقال :

تُحسِنين صنماً . . .

- أقسم بالله لآخونتك !
- وما الذي يمنعك من ذلك ؟
- لا يستطيع أن يمنعني أحد ... أصغر إلى ، إن لي عشيقاً !
- حسنا ...
- وإني أعبده ..
- ألاحظ ذلك !
- ما رأيك ؟
- الطبيعة لا تنافي وجود العشاق !
- أهذا كل ما عندك ؟
- نعم ...
- ألا تريد أن تعرف اسمه ؟
- كلا .
- لأنك تغار منه ؟

- بل لأننى أعرفه !
- أحمًا . . . ومن هو ؟
- ما دمنا نعرفه نحن معا ، فلا داعى لذكر اسمه
- أقسم بالله إنك متضايق !
- أنظنين ذلك ؟
- بل أتيقن . . .
- إذا أنا متضايق !
- . . . وسأخرج الليلة مع عشيقى !
- فى ضوء القمر ؟
- وفى زورق يتمخر بنا غُبابَ النيل . . .
- ومعكما عازف ، يضرب على العود !
- وسنحتسى من الشمانيا ما نشاء . . .
- نزهةٌ تذكّرنى بأيام الرشيد !
- واحتوانا الصمتُ برهة . . .

ثم قام « سامح » إلى « التليفون » ، وسمعتة يقول :
« أَعِدِّ لَنَا زورقًا ممتازًا ، أمام « سميراميس » وأحضرْ معك
« زين الدين » العواد ، واشترِ بضع زجاجات من الشمبانيا
الفاخرة . . . سنحضر في الساعة التاسعة »

وقت إليه ، وأنا مهتاجة ، أقول :

ماذا تعنى بهذا ؟

فوضع سماعة « التليفون » في هدوء ، واقترب مني ، ثم
أخذ وجنتي بين كفيهِ ، وحدثني في طويلا بعينيه المتقدتين ،
ثم قبلي قبلة عميقة تجمعت فيها لذة الحياة على اختلاف
ألوانها . . .

. وفي الساعة التاسعة مساء ، رافقته إلى
« سميراميس » ، حيث ركبنا الزورق ، وأمضينا وقتًا من
أطيب الأوقات . . .

والآن يا صديقتي لعلك ، بعد أن أطلعتك على الجانب المهم
من أسرار حياتي الحاضرة ، تريدان أن تسأليني :

ما الذي تشعرين به اليوم لـ « سامح » يا « سعاد » ؟

(٨)

وهنا أقف حائرة لا أجد من جواب ، بيد أنى أعترف
لك بأن هذا الزوج الغامض قد أصبح اليوم يشغل أكبر جانب
في حياتى ! . . .

وختاماً أهدى إليك قبلاى الحارة ما

المخلصة

سماء

الكلان الوافر

أركان الوضوء

في أثناء دراستي بالمدرسة الابتدائية ، عرفتُ من زملائي في الفصل طالباً اسمه : « الزَنْكُونِي » يُشْبِه في حَجْمِهِ وَهَدْوَتِهِ الفيلَ الأليف . وكنا نُحِبُّهُ على الرغم من غباوته التي أصبحتُ مضربَ المثل بيننا . وكان المسكينُ يَبْذُلُ قُصَارَى جُهدِهِ لاستذكار دروسه ، ويقضى من الليل شَطْرًا كبيراً أمام كُرْسِيِّهِ وَكُتُبِهِ ، فإذا ما أصبح لم يجدُ في رأسه من شيء .

وتعود « الشيخ بركات » أستاذ الديانة أن يفتحَ الحِصَّةَ دائماً بهذا السؤال ، يُوجِّهُهُ إليه في غير رحمة :

ما هي أركان الوضوء يا زنكلوني ؟

فيقفُ « الزنكلوني » فاغراً فاه ، كأنه تمثالٌ من حجر ، فيعقبُ الأستاذُ على سؤاله السابق بقوله :

صفر يا زنكلوني ! ... عيش حافٍ يا زنكلوني ! ...

غروب خميس يا زنكلوني ! ...

وكننا نشهدُ هذه المأساة المضحكة ، تتكرر في كلِّ حصَّة
لـ « الشيخ بركات » . فصار « الزنكلوني » لا يحظى بمشاركتنا في
الغداء على مائدة الطعام إلا مرةً واحدةً في الأسبوع كَلَّه أومرتين .
أمَّا بقيَّة أيام الأسبوع ، فقد أَلْفَنَّا أن نراه مُبْعَدًا بجوار الحائط
في قاعة الأكل ، يُحْمَلِقُ فينا بعَيْنَيْهِ الضَيِّقَتَيْنِ في تبلُّد ،
ويَقْضَم من الرغيف قَضْمًا هادئًا ، كأنه لا يَعْنِيهِ ما يَلْقَاهُ من
حِرْمَان . ثم يبعثُ إلينا في الحينِ بعد الحينِ بابتسامته البلهاء .
وقد نلتقى إليه البلح الأبريمي والبندق ، فيَلْقَفُهُ وَيَزْدَرِدُهُ بِهِم !

واستمرَّ الحال على ذلك ، و « أركانُ الضوء » تَسُدُّ
على صديقنا « الزنكلوني » المنافذ ، وتصبُّ عليه جَامَ الحِرْمَان .
ولكنها مع هذا كَلَّه لم تستطعْ أن تَفْرُوَ بَدَانَتَهُ ، بل لقد
راح جسمُه الضَّخْمُ ينمو ويزداد !

وذاتَ يوم سأله الأستاذُ سؤاله المهود ، ورَصَّع الدَفْتَرَ
بالصِّفَر العظيم ، كما كان يفعل من قبل ، ونقشَ اسمه
الكرِيمَ في ورقة « العيش الحاف » . ثم وقف قُبَالَتَهُ
يتأملُه طويلا ، قائلا :

أخبرني يا زنكلوني ... ما الذي تعرفه إذا ؟ أيُّ شيء
تقدِر أن تُجيدَه في هذه الحياة ؟

فهرش « الزنكلوني » رأسه هرشاً متواصلاً ، بيد أنه
ظلّ صامتاً فاغراً فاه ... ووقف تلميذٌ من خبثاء الفصل
يقول للأستاذ بِجُرْأة :

يعرف أن يغنى ياافندي ... صوته حلو !

وكان أستاذُ الديانة ، على صلابته ، رجلاً متسامحاً ، يَطْرَبُ
للنكته ؛ وكثيراً ما اقتطعَ من الدروس وقتاً يرؤى لنا فيه
حوادثٌ فكّيةٌ جرتُ له . فقال لـ « الزنكلوني » على الفور :
أصحيح هذا يا زنكلوني ؟ ... أتعرف أن تغنى ؟ ...
فأجبنا كلُّنا عن « الزنكلوني » في صوتٍ واحد :
صحيح ياافندي يعرف أن يغنى ...

وصدّق « الزنكلوني » كلامنا ، فجلس ، وأخرج « جزء
تبارك » وتَهَيَّأً للتجويد ، فشملَ الفصلَ كلّه صمتٌ عميق !
وانطلق « الزنكلوني » يرتل ، فكان قبلةً قد انفجرتُ
وتطارتُ شظاياها ، فاندفعنا كلُّنا ضاحكين ... وأدرك
الأستاذُ النكتهَ ، فابتسم ؛ ثم رأيناه يُخني وجهه في منديلِه .
أما « الزنكلوني » فقد مضى في تجويده ، يزداد تحمُّساً .
فتقدّم منه الأستاذُ قائلاً له :

شاطر يا زنكلوني ... عشرة على عشرة يا زنكلوني ! ...
... .. واستردَّ « الزنكلوني » مَجْلِسَه بيننا على مائدة
الغداء ، وفارق مَوْقِفَه الذَّلِيلَ بجوار الحائط . وكان في أثناء
تناوُلِهِ الطعامَ يُشيرُ إلى المعاقِبِينَ بـ « العيش الحاف » إشاراتٍ
سخرية ، ويتغامزُ عليهم في شامته ، ويقذف لهمُ البلحَ الأبرمى
وهو يضحكُ مَقَهِّهَا !

ومنذ ذلك الحين أصبح « الزنكلوني » أولَ زملائه في الديانة ،
إذ كان ينال دائماً الدرجةَ العُلْيَا

وبينما كان « الشيخ بركات » يوماً يَمْتَحِنُ بعضاً منا ، إذ
دخل الفصلَ ناظرُ المدرسة ، ووقف يستمع ويتفقدُ التلاميذ .
ثم تصفَّحَ دَفْتَرَ الأستاذ ، فاسترعى نظره ما حازه « الزنكلوني »
من درجات الشرف والتقدم . فسُرَّ الناظرُ به وناداه :
محمد الزنكلوني !

فتحرَّكَ جِرمُ الفيلِ الأليفِ بجوار قِمَطْرِهِ ، واكفهرَ وجهه
« الشيخ بركات » وأخذ يمسحُ العرقَ المتصبَّبَ من جبينه .
وقال الناظرُ لـ « الزنكلوني » :

أتعرف يا شاطر أن تذكر لنا : ما هي أركان الوضوء ؟

ونظر بعضنا إلى بعض نظراتٍ دَهْشَةٍ وتساؤلٍ ، وقد تسارعتْ
نَبْضَاتُ قلوبنا ، وَغَشِيََ الفَصَلَ سكونٌ مُطْبِقٌ . ولم تتحرك
شفتا « الزنكلوني » بلفظ ، فَحَسِبَ الناظرُ أن التلميذ لم يسمعه ،
فأعاد سؤاله

وسُرَّعَانَ ما رأينا « الزنكلوني » يجلس ، فيُخرج « جزء تبارك »
من القِمَطِر ، ويبدأ في الترتيل بصوته العالى الكريه !

وأدار الناظرُ وجهه إلى « الشيخ بركات » فوجده ممتنعَ
اللون ، يحاول عبثاً أن يتغَالبَ على ما فيه من اضطراب . . .
وسمعنا الناظر يقول :

كفى . . . صفر . . . عيش حافّ يازنكلوني !

وبعد أيام قليلة ، جاءنا أستاذُ آخرُ المديانة . . .

واحتلَّ « الزنكلوني » — عوداً على بدء — مكانه القديم

بجوارِ الحائطِ في قاعةِ المائدة ، وقنع بالرغيف الحافّ ، وبما

يتصدَّق به الزُّملاءُ عليه من البلح والبندق !

ولكنه لم يحاول مرةً أن يفهم سرَّ هذا الانقلاب . . . !

عز الدين الميرزا

عزيرة

١

في قرية « النعامنة » من قرى مديرية « الدَّقِيبِيَّة » يسكن « الشيخ غنيم » المقرئ والحائقي ؛ رجل صموت ، ضامر الجسم ، ذو عينين براقتين ، ووجهٍ شاحبٍ طويلٍ تغشاه التجاعيد .

مضى عليه الآن أربعون عاماً لا يعرف له صناعةً غير الموت والأموات ؛ فتراه قارئاً على رأسٍ مُخْتَصِرٍ يسهل للروح طريقاً خلاصها ، أو قائماً بجوار ميتٍ يطلب له الرحمة ، أو غادياً رائحاً بين الدُّور والمقابر يُغسلُ هذا ويدفن ذلك . وقد أكسبته هذه المهنة سحنة الموتى ؛ فنظراته جافة جامدة ليس فيها حياة ، وحركاته كحركات الهياكل العظمية تثير الرهبة في القلوب ، فكأنه ميت يعاشر الأحياء !

يدخل على المريض متمهلاً يتوكأ على عصاه الطويلة ، ويجلس متربهاً في هيدوء بجوار رأسه ، ثم يُخرج المسبحة ويبدأ يقرأ ؛ فإذا بالمريض قد تخاذلت قواه ، واستيقن قرب ساعته ، ولا يلبثُ

أَنْ يُمْسِيَ جِثَّةً هَامِدَةً يَقَابِلُهَا « الشَّيْخُ غَنِيمٌ » بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا
يَقَلِّبُ الْجَزَارُ ذَبِيحَتَهُ ؛ فَإِنْ سَارَ بِجَوَارِ الْأَصْحَاءِ ، نَشَرَ الرَّعْبَ
بَيْنَهُمْ ، فَغَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنَ الْوُجُومِ ، وَجَعَلُوا يَفْكُرُونَ فِي
مَنْتَبِهِمُ الدَّانِيَةَ !

وَيَسْكُنُ فِي الْقَرْيَةِ نَفْسَهَا فَتَى مِنَ الْفَلَاحِينَ يُدْعَى « عَمَّارٌ »
قَامَتْهُ مَدِيدَةٌ ، وَجَسْمُهُ صُلْبٌ مَمْتَلِئٌ ، كَأَنَّهُ ثُورٌ عَتِيٌّ . لَهُ رَقَبَةٌ
غَلِيظَةٌ كَجَذَعِ الشَّجَرَةِ الْعَتِيقَةِ ، بَقَعَا عَرِيضٌ مَفْرُوحٌ يَلْمَعُ فِي
وَهَجِ الشَّمْسِ كَلَوْحِ الْخَشْبِ الْمَصْقُولِ . . . لَا يَعْرِفُ مِنَ الْحَيَاةِ
إِلَّا وَجْهَهَا الضَّاحِكُ . وَلَا تَفَارِقُ مُحْيَاةَ بَشَاشَتِهِ السَّادِجَةَ ،
حَتَّى فِي أَشَقِّ سَاعَاتِهِ عَمَلًا . أَمَا أَوْقَاتُ رَاحَتِهِ فَيَقْضِيهَا عَلَى
شَاطِئِ التَّرْعَةِ ، يُؤَانِسُ النَّاسَ بِأَحَادِيثِهِ الصَّبْيَانِيَةِ ، وَيُطْرِبُهُمْ
بِقَهْقَرَاتِهِ الْعَالِيَةِ . . . أَكُولٌ لَا يَهْدَأُ فَكَاهُ لِحَفْظَةِ عَنِ الْحَرَكَةِ ،
فِتَارَةٌ تَرَاهُ يَقْضَمُ مِنْ كَوْزِ ذُرَّةٍ مَشْوِيٍّ ، وَطَوْرًا تَجِدُهُ
يُنْفِصُّ قُرُونِ الْفُولِ الْأَخْضَرَ يَمَلَأُ بِهَا فَمَّهُ . وَمَرَّةً أُخْرَى
تَشَاهِدُهُ يَلْتَقِطُ « السَّرِيسَ » وَالْحُلْبَةَ مِنَ بَيْنِ الزَّرْعِ ؛ فَكَأَنَّهُ
سَائِمَةٌ تَهَيِّمُ عَلَى وَجْهِهَا ، تَرَعَى مَا تَجِدُهُ أَمَامَهَا . . .

وَالْفَتَى « عَمَّارٌ » يَكَادُ يَكُونُ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي
لَا يَرْهَبُ « الشَّيْخُ غَنِيمٌ » ؛ فَقَدْ اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَخَصَّهُ بِوَأْفَرِ

محبتة وإخلاصه . وكان الناس يرونها سائرًا جنبًا إلى جنب ، الأول في ضموره وشُحوبه ووجومه ، والثاني في ضخامته وإشراقه وثرثرته ، فيهما سون متعجبين : سبحان من جمع بين الضدين : مَلِكِ الموتِ وَمَلِكِ الحياة ! وتوثقتُ صداقةُ الشيخ والفتى على مرَّ الأيام ، حتى أصبحا مَضْرِبَ الأمثال في المودَّة والوفاء .

وكان « عمَّار » لا يعرف في حياته المرض ، ولم يذكر أنه شعر بانحراف صحته منذُ حداثة سنِّه ، وهو يهزأ بالمرضى ، ويسميهم : « البهوات المُتَرَفِّين » ، فكان لا يفكر في شيء اسمه الموت ، بل يكره الموتى وسيرتهم ، ولا يزور المقابر مطلقاً . وكان حديثه مع صديقه « الشيخ غنيم » لا يتناول شيئاً من شؤون المرض والموت . والشيخ لا يُخرج الكلمة من فيه إلا بشقِّ النفس ؛ فعلمه دائماً منصرف إلى الإنصات لنوادير « عمَّار » الظريفة ، والابتهاج بضحكاته المرحة . وما أحوَجَ الشيخَ لمثل هذه النوادر والضحكات ، وهو الذي يعيش بين الدموع ، ولا يَطْرُقُ سمعُه غيرُ ألحان النَّدْبِ والبكاء !

عاد « عمّار » ذاتَ يومٍ إلى داره وقد شعرَ لأول مرة في حياته بِثِقَلِ رأسه ، وما كاد يعتلى ظهرَ الفرن ، ويعدُّ عدّته للنوم حتى أصابته قشعريرةٌ شديدة ، أفلقت مضجعه طول الليل . فخار في أمرها ، وعجزَ عن التغلب عليها . وفي غفوةٍ محومة رأى شبحاً هزيباً ، كأنه عظام عاريةٌ من اللحم لا تسترها ثياب ؛ وإذا بالشبح يدخل الدار متمهلاً وهو قابض على عصاً معقوفة ، ويذهب من فوره إلى مكانٍ بجوار رأس « عمّار » ، فيعدُّ على مسبّخته بعض سور قرآنية ، يرتلها بصوت يشبه صوت الندّابات . وكانت تنبعث من عيني الشبح نارٌ حامية تنصبُّ على رأس المريض فتُحرِّقه . . . وأمضى « عمّار » ليلته على أسوأ حال ، فريسةً للحمى والهَمِّ والقلق .

وفي الصباح قام إلى الغيط متخاذلاً ، مطأطِئاً الرأس ، يفكر في حالته . وقضى يوماً يعمل في أرضه عمل البهائم . ثم عاد إلى داره منهوك القوى من شدة التعب ، وأحكم إقفال الباب ؛ ثم انسطح على ظهر الفرن ، ونام نوما عميقاً لم يصحُّ منه إلا في الضحوة العالية . وشعرَ بالنشاط يدب في جسمه ، وبالبشر

يَغْمُرُ نَفْسَهُ ، فذهب إلى عمله ، وجعل — كسابق عهده —
يَأْكُلُ وَيَتَفَكَّهُ ، وَيَضْحَكُ وَيُغَنِّي ، وَيَرَوِي الْأَخْبَارَ وَالنَّوَادِر .
وفي العصر — عند عودته إلى داره — قابل في الطريق صديقه
«الشيخ غنيم» ، يسير متمهلاً على جسر التُّرعة ، بعصاه الطويلةِ
المعقوفة ، ملتخفاً عَبَاءَتَهُ السَّوْدَاءَ ، لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا جُوتَانِ
صَغِيرَتَانِ مُقْفِرَتَانِ ، يَنْبِثُ مِنْ أَعْمَاقِهِمَا بَصِيصٌ شَحِيحٌ . فَسَرَتْ
فِي جِسْمِ «عَمَّارٍ» رِعْشَةٌ لَمْ يَدْرِ مَاتَاهَا ، وَلَكِنَّهُ اقْتَرَبَ مِنْ
صَدِيقِهِ ، وَحَيَّاهُ بِابْتِسَامَةٍ مُكْرَهَةٍ ؛ وَحَاوَلَ عَثًّا أَنْ يُؤَنِّسَهُ
بَطَرِيفِ أَخْبَارِهِ . وَكَانَ يَشْعُرُ فِي أَثْنَاءِ سِيَرِهِ بِضَيْقٍ تَنْفُسِهِ ،
كَأَنَّ عَلَى كَتْفَيْهِ حِمْلًا ثَقِيلًا ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِيْتِمَامَ نَزْهَتِهِ مَعَهُ ؛
وَاعْتَلَّ عَلَيْهِ بِمُخْتَلِفِ الْعِلَلِ حَتَّى فَرَّ هَارِبًا مِنْهُ !

وَدَخَلَ الْقَرْيَةَ وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا الظَّلَامُ ، فَسَارَ فِي طَرِيقِهِ بِخُطَا
فَسِيحَةٍ ، يَرِيدُ الْوَصُولَ إِلَى دَارِهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ ، مُحَاوِلًا تَسْكِينَ
خَاطِرِهِ ، وَاسْتِعَادَةَ جَاشِهِ . وَطَرَقَ سَمْعَهُ فَجَاءَتْ خَفْقُ أَقْدَامِ تَضْرِبِ
الْأَرْضِ كَضْرِبِ حَوَافِرِ الْغَنَمِ ، مَصْحُوبٌ بِدَوِيٍّ شَدِيدِ كَدَوِيٍّ
الزَّوَابِعِ . فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ «الشيخ غنيم» يَقْتَصُّ أَثْرَهُ ... وَكَانَ الظَّلَامُ
قَدْ تَكَاثَفَ دُونَهُ ، وَالصَّمْتُ الرَّهِيْبُ يَكْتَنِفُهُ ؛ فَانْطَلَقَ مَسْرَعًا

نحو داره يَلْهَث . ودخل الدارَ في عجلة ودُعر ، وأحکم إقبال
الباب خلفه . ولكنَّ عينيَّ « الشيخ غنيم » ، هاتين الفجوتين
المُتَقَرِّتين في بصيصهما الشحيح ، تراءتا له خلف كُوَّةِ غرفته . . .
فأخذ عباءته وكوَّرها ، وسدَّ بها الكُوَّةَ من فوره . وقد
تزايد ضيقُ تنفُّسه ، واشتدتُّ وطأة الحِمْلِ على صدره ،
فصرخ مهتاجاً ، وهو يتلمَّس الهواءَ لِرِئتيه :

ماذا يريد مني هذا الرجل ؟ . . . ماذا يريد . . . ؟

٣

ومرت الأيامُ تَلَوَّ الأيام ، و « عمار » يُرى يوماً مُشْرِقَ
النَّفْسِ يزهو صحَّةً ونشاطاً ، ويوماً كاسفَ الوجه شاحبه ، يَتَنَقَّسُهُ
الهمُّ والحِذْلان . ولم يكنْ يُشَاهِدُ « الشيخ غنيم » إلا في
أوقات متباعدة ، على خلاف عاداته ؛ فيشعُرُ وهو في مُحِبَّتِهِ
بقلقٍ شديد . وتحوَّلَ هذا القلق إلى كُرْهِه للشيخ لم يعرف له
عِلَّةً ، كره عجيب كان يُسَمُّ دمه ، وَيَعْمَلُ حياته بسلسلة من
الهُواجس الخفيفة . وتَنَكَّرَتْ له صورةُ الشيخ ، وأصبحت من
شاعتها لا يُطِيق أن يرفعَ إليها بصره !

وهكذا فَتَرَّتْ عَلائِقُ الصَّحبةِ بَينَ « عَمَّارٍ » وَ « الشَّيخِ غَنيمٍ »
وَقَلَّ تَلاقِيهُما يَوماً بَعدَ يَومٍ . وَما زالَ كَذلكَ حَتى حَلَّ الوَقتُ
الَّذى تَقَطَّعتُ فِيهِ بَينَهُما أواصرُ الوِدةِ .

وَعاودتُ « عَمَّارٍ » الحَمى يَوماً ، فَانقلبَ إلى دارِهِ مَتخاذِلاً
مُصدِّعَ الرَأسِ مَهموماً . وَراحَ يَفكرُ في أمرِ مَنيَّتِهِ العاجِلَةِ ... وَكانَ
يَتخابَلُ لهُ وَهو في غَيبوبةِ الحَمى أَنَّ « الشَّيخَ غَنيمٍ » قَد أَقبلَ
عَليه يُفِسلُهُ وَيَكفِنُهُ ، وَيُعِدُّهُ لِلدَفنِ . فَيَتَفَرَّعُ صارِخاً مِنَ أعماقِ
قَلبِهِ ، وَيَمضى يَلعنُ الشَّيخَ وَيطرُدُهُ مِنَ مَنازِلِهِ !

وَبيَنا كانَ يَبحِثُ مَرَّةً في صُندوقِهِ عَن عِباءَتِهِ التَديمَةِ لِيُغَطِّيَ
بِها جِسمَهُ المَقرورَ ، إِذْ عَثَرَ عَلى « طاقِيَّةٍ » مِنَ الصُوفِ كانَتِ
لِ « الشَّيخِ غَنيمٍ » ، فَأهداها إِلى « عَمَّارٍ » أَيامَ الصِّفاءِ . فَأسرَعَ
بِاتِّزاعِها مِنَ بَينِ مَلابِسِهِ ، وَأَخذَ يَقلِّبُها في يَدَيْهِ بِمَحرَكاتِ عَصَبِيَّةٍ .
وَلَمَتِ فِكرَةً في رَأسِهِ أَشرقتُ لَها أَسارِيرُ وَجِهِهِ ، فَقامَ عَلى القورِ
يُشعلُ النَارَ في « الطاقِيَّةِ » . ثُمَّ وَقَفَ يَرَقِبُها — وَهِيَ تَشعلُ —
بِسرورٍ عَظيمٍ !

وَمنذُ ذَلكَ الحَينِ ، كانَ كَما شَعَرَ بِعُودَةِ الحَمى إِليه ، جَمعَ وَرقاً
عَريضاً ، وَرسمَ عَليه صَوراً آدميَّةً مَتشابِهةً ؛ ثُمَّ لا يَلبِثُ أَنَّ

يَقْصُّهَا وَيُشْعَلُ النَّارَ فِيهَا وَاقْفًا يَرْقُبَهَا فِي تَشْفٍ وَارْتِيَا ح ، بَمِينِينَ
يَنْبَعثُ مِنْهَا هَيْبُ الْحَدِّ وَحُبُّ الْإِنْتِقَامِ ، مَتَمِّمًا بِصَوْتِ خَالْتِ :

إِلَى النَّارِ يَا شَيْخَ غَنِيمِ ! إِلَى النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ !
وَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَسْتَحِيلُ الْوَرَقُ أَمَامَهُ رَمَادًا تَذْرُوهُ
الرِّيَّاحُ . . . وَمَنْ ثُمَّ يَعْتَلِي ظَهْرَ الْفَرَسِ ، وَيَنَامُ لَيْلَتَهُ مَلءَ
عَيْنَيْهِ ، هَانَتْ نَاعِمَ الْأَحْلَامِ !

وَخَرَجَ « عِمَارٌ » مِنْ دَارِهِ يَوْمًا قَاصِدًا قَهْوَةَ « الْمَحْطَةِ » لِيَدْخُنَ
« تَعْمِيرَةَ » مِنْ « الطَّبَاقِ » . . . فَرَأَى « الشَّيْخَ غَنِيمَ » فِي الطَّرِيقِ
بَعِيدًا عَنْهُ ، يَسِيرُ هَادِئًا مَطْمَئِنًّا مَوْفُورَ الْعَافِيَةِ . فَأَخَذَ مِنْهُ الْغَيْظَ
كُلًّا مَأْخُذًا ، وَجَعَلَ يَرَاقِبُهُ فِي اِهْتِمَامٍ ؛ ثُمَّ تَنَاوَلَ حَجْرًا وَقَذَفَهُ
بِهِ فِي سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ ، فَأَصَابَ قَنَاهُ . وَاخْتَفَى « عِمَارٌ » فِي الْغَيْظِ
وَالْتَفَتَ الشَّيْخُ مَذْعُورًا ، لِيرِي مِنْ أَقْدَمِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْغَرِيبِ ؛
فَلَمْ يَرِ إِلَّا بَعْضَ أَطْفَالٍ يَلْعَبُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَكَانِهِ ، فَظَنَّ أَنْ
أَحَدَهُمْ آذَاهُ بِلَا قَصْدٍ مِنْهُ .

وَعَادَ « عِمَارٌ » إِلَى دَارِهِ رَافِعَ الْبَالِ ، مَنْبَسَطَ النَّفْسِ ؛ وَتَرَبَّصَ
مِنْ غَدِهِ لِلشَّيْخِ فِي طَرِيقِهِ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ ، وَرَمَاهُ بِحَجَرَيْنِ
أَصَابَ أَحَدَهُمَا كَتْفَهُ ، وَالْآخَرَ ظَهْرَهُ !

وَمَضَى « عمار » يَتَوَخَّى دَائِمًا إِيْذَاءَ الشَّيْخِ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ .
وَكَانَ يَتَفَنَّنُ فِي هَذَا الْإِيْذَاءِ تَقْنُنًا عَجِيبًا . . . يَقْضِي اللَّيْلَ سَاهِرًا
يَرْسُمُ خُطَطَهُ وَمَكَايِدَهُ ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ تَنْفِيذِهَا . فَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ
وَقَعَ « الشَّيْخُ غَنِيمٌ » فِي حَفْرَةٍ مَغْطَاةٍ بِالْهَشِيمِ ، تَبْدُو كَأَنَّهَا جِزْءٌ
مِنَ الطَّرِيقِ الْمَسْلُوكِ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ شَعَرَ - وَهُوَ يَتَوَضَّأُ لَيْلًا
عَلَى حَافَةِ التُّرْعَةِ - بِيَدٍ مَجْهُولَةٍ تَدْفَعُهُ إِلَى الْمَاءِ تَرِيدٌ إِغْرَاقَهُ .
وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ هَوَى عَلَى رَأْسِهِ فَرْعُ شَجَرَةٍ ضَخْمٍ كَادَ يَقْضِي عَلَيْهِ !
وَلَمْ يَقْصِرِ « عمار » ضَرَرَهُ عَلَى الشَّيْخِ وَحْدَهُ ، بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى
مَنْزَلِهِ . فَقَدْ وَجَدَ « الشَّيْخُ غَنِيمٌ » مَرَّةً بَعْضَ دَجَاجِهِ وَإِوْرَهُ
مُخْرُوقًا . وَلَا حِظَّ مَرَّةٍ أُخْرَى أَنْ مَجْهُولًا نَقَبَ الْجِدَارَ وَفَتَحَ ثُغْرَةً
فِي السَّقْفِ . فَكَانَتْ تَمْلِكُهُ الدَّهْشَةُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ
يَعْزُؤَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ إِلَى الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ ، فَيَسْتَعِيزُ
بِاللَّهِ مِنْهَا ، وَيَسْتَعِينُهُ عَلَى دَفْعِ ضَرِّهَا .

٤

وَكَانَ أَنْ اسْتَيْقِظَ أَهْلُ بَلَدِ « النِّعَامَةِ » فِي مَنْتَصَفِ إِحْدَى
الليالي على صوت استغاثة لأهفة . . . فهبوا من فراشهم سراعاً
وخرجوا يَسْتَجِلُّونَ الْخَبَرَ ؛ فَإِذَا بِهِمْ يَرَوْنَ نَارًا تَنْدَلِعُ أَلْسِنَتُهَا

من منزل « الشيخ غنيم » قهَّددُ بقيةَ الدُّورِ بشرٍ مستطير .
فأخذوا يكافحونها ويحصرونها في بقعة واحدة ، واستطاع القوم
بعد الجهدِ أن يُحمِدوا النار . ثم راحوا يتفقَدون البيت ، فوجدوا
في كِنِّ الدَّجاجِ جثةً سوداءَ شوَّهتها الحروق . . . وبينما كانوا
يحاولون إخراجها من تحبِّسها ، سمعوا صوتاً مُجَلِّلاً يُصيحُ قائلاً :
دعوني أتكفلُ بحمَلِ صاحبي وحبيبي . . . دعوني أتولِّ
قراءةَ السورةِ على رأسه . . . دعوني أقمُّ بغسله ودفنه . . .
يرحمك الله يا شيخ غنيم ! . . .

فالتفت الجمعُ فإذا بـ « عمَّار » يدخل الدارَ مهرولاً وهو يضرب
صدره بِكِلْتَا يديه ، فأوسَعُوا له الطريق ، وتركوا له الجثةَ ليتولى
أمرها . . . وقام « عمَّار » بِمِهْمَتِهِ خيراً قياماً ، فدَدَ الشيخُ على فراش
الموت ، وقرأ على رأسه السُّورَ التي اعتاد الشيخُ أن يقرأها على
رءوس المحتَضرين والموتى . ثم غَسَّله وكفَّنه ، وحمله إلى القبرِ فوسَّده
التراب ، وأحكم سدَّ القبرِ عليه . ولما أن تفرق الجمعُ عائدين إلى
دورهم ، قام « عمَّار » وتمطَّى بحركة عريضة ، وتنفس طويلاً بارتياح .

ولما لم يجد أهل بلدة « النعامنة » شخصاً يليق بعمل « الشيخ غنيم » غير صديقه « عمار » ، قَدُّوه إياه ، فتقبَّله برضاً واطمئنان ، وأخذ يرأوله بهمة ونشاط . وتفرَّغ له كل تفرُّغ ، فترك الزرع والضرع ، وأقبل على الموتى يومئذهم التراب ، ويسدُّ عليهم أبواب القبور . وكانت تسرى فيه نشوة ابتهاج غريبة حينما يطرق سمعه خبرٌ مُحْتَضِرٌ أو ميت ، ويُحْسِنُ لَدَةَ عميقة تَأْسِرُ جميعَ مشاعره عندما يقبُّ بين يديه جُثَّةَ غنائمه ، حاسباً أنه يُضيف إلى عمره بقيةَ أعمار هؤلاء التاعسين !

ومنذ أن تقلَّد « عمار » — أو بالأحرى « الشيخ عمار » — عمله الجديد ، لحقه تغييرٌ كبير ، فأخذ جسمه يَهْزُلُ ، وعيناه تغوران ، وجبهته تبرز ، واختفت ضحكاته ونوادره ، واكتسى وجهه الطويل بوجوم مخيف . وتجنَّبَ الناسَ ، وآثر الوحدة ، فهو يمشى على جسر التربة بخطواته الجافة المديدة ، وقامته الصلبة الطويلة ، مِشْيَةَ المَخَافِ وَالْأَسْرَارِ .

وكان يتوكأ على عصا « الشيخ غنيم » التي ورثها فيما ورث من تَرَكَتِهِ ، فإذا ما رآه الناس من بعيد أخذوا يتهايمسون قائلين : هذا هو عزرائيل القرية . . . هذا هو قابض الأرواح !

اندره ایله

أفريدي - بروح

وصلتُ إلى دعوةٍ من صديقٍ « فريد » و « عباس » ؛
لأقضىَ معها بضعةَ أيامٍ في « فلتها » البديعة بـ « سيدى بشر » .
وكان القيظُ بالغاً أشدهُ في القاهرة ، فقَبِلتُ الدعوةَ بالرضا والسرور ،
وحزمتُ متاعى ، وسافرتُ إلى الإسكندرية . و « فريد » و « عباس »
شقيقان تزوجا من شقيقتين ، وهم جميعاً يعيشون في صفو ووثام .

وصل القطارُ إلى « سيدى جابر » فأنفستُ الأسرةَ تنتظرني
على رصيفِ المحطة . وما إن قفزتُ من عربةِ القطار ، حتى
رأيتُ مخلوقاً صغيراً قد تعلقَ برقبتي ، فصحتُ مهللاً :

وأنتِ أيضاً يا « تقاحة » جئتِ تستقبلينى ؟؟

و « تقاحة » ابنةُ صديقٍ « فريد » ، طفلةٌ تبلغُ السابعة ، لم
تقعُ عيني على أظرفِ منها وأخف .

أخذتها بين ذراعىَّ أقبلها وألطفها ، ثم أخرجتُ من جيبى
علبةً من « الشكولاتة » كنتُ أعددتُها لها ، وناولتها إياها
وأنا أقول :

لقد أحضرتُ لكِ ، غير هذه ، أصنافاً شتى من الحلوى واللُّب .

فصاحتُ « تفاحة » :

أين هي ؟

— صبراً يا صغيرتي صبراً . كلها موجودةٌ في حقيبتى ،
ولكن لن تأخذِها دفعةً واحدةً ... كل يوم هدية .

فمأنقتني ، وانطلقتُ أمحدتُ وإياها ، وسمعتُ « فريد »

يقول :

يظهر أنه ليس لنا حساب عندك ، كله لتفاحة ؟ !
وضحكتُ « حياة » و « أمل » زوجتا صديقي ، فأسرعت
وسلمتُ عليهما ، وقلت :

يا أصدقائي الأعزاء ، لا مؤاخذة . حقاً إني رجل قليل
الذوق ، ولكن تعرفون كلُّكم أنى

فقاطعتني « أمل » قائلةً :

تعرف أنك و « تفاحة » من أعزِّ الأحباب ، وأنتك في

سبيل هذا الحب تتناسلنا جميعاً !

وضجَّ الجَمع مؤيدين هذا القول ، محتجِّين على سوء

أصرفني . وسمعتُ « عباس » يصيح بي :

الله ! أين حقيقتك يا « شاكِر » ؟

ودرتُ بعينيَّ أبحثُ عنها ، ثم تذكرتُ أني لم أنزلها
معي ، ورأيتُ القطارُ يتهاذى في سيره ، تاركًا « محطة سيدي
جابر » . ونظرتُ إلى « تقاحة » نظرة حَسرة وياس ، فقال
لها أبوها :

لا تَحْشَى شيئًا ؛ سنبعث من يُحضر حقيبة « شاكِر بك »
في الحال ، لن تَفْقِدِي شيئًا مما أحضره لك !
وأشار إلى الخادم ، فتعلق بإحدى عربات القطار ، والتفتُ
إلى أصدقائي ، وقلت :

أعوذُ بالله من ضعف ذاكرتي ، حتى الحقيبة أنساها ؟!
حقًا لقد أصبحتُ مَضْرِبَ المثل في النسيان . . .
فقال « عباس » :

ولكن . . . ألا تعلم يا شاكِر أن ضعف الذاكرة من
مظاهر العبقرية ؟

فنظرتُ إليه محملقًا ، وصمعت « فريد » يقول :

مؤكد . النسيان من مظاهر العبقرية !

وتركنا المحطة ، ونحن نناقِشُ في النسيان والعبقرية . . .

وسمعتُ بِنْتَةَ دَوِيِّ الْبَحْرِ وَاسْتَقْبَلَنِي هَوَاؤُهُ الْقَوِيَّ ، وَرَأَيْتُ
السَّيَّارَةَ تَسِيرَ بِنَا فِي طَرِيقِ « الْكُورْنِيَشِ » الْبَدِيعِ . فَتَنَفَّسْتُ
تَنَفَّسًا طَوِيلًا ، وَأَنَا أَتَلَفْتُ حَوْلِي مُشْرِقَ الْوَجْهِ . وَسَمِعْتُ
« أَمَلٌ » تَقُولُ :

اعملوا معروف ، اعتقوا « شاكر بك » من النسيان والعبقريّة !
وقالت « حياة » :

فلنتكلم في عبقرية البحر ، والحمامات ، والكازينو !!
أليس كذلك ؟

فصحتُ مَوَاقِفًا ، وَانْدَفَعْنَا نَتَكَلَّمُ فِي حِمَاسٍ عَنِ الْبَحْرِ
وَالْحَمَامَاتِ وَ « الْكَازِينُو » ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى « الْفِيلَا » .
وَأَدْخَلُونِي حُجْرَتِي ، وَوَصَلَ مَتَاعِي بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَأَخَذْتُ أَرْتَبَ
حَوَائِجِي ، وَأَغَيَّرْتُ مَلَابِسِي .

وبعد العشاء قصينا سَهْرَةَ لَطِيفَةً فِي الشَّرْفَةِ الْكَبِيرَةِ ؛
نَلْعَبُ الْوَرْقَ ، وَنَسْتَمِعُ إِلَى « الرَّدْيُو » ، وَتَبَادُلُ النُّوَادِرِ .



وانقضت أيام ، وأنا أعيش مع هذه الأسرة الكريمة ، مُحَاطًا
بِكُلِّ رِعَايَةٍ ، مَعْمُورًا بِكُلِّ عَطْفٍ وَإِخْلَاصٍ .

وَوَفَّيْتُ بِهِدَى ل « تفاحة » فكنت أمتحها كل يوم هدية صغيرة ، فتكافئني عليها بقبلة طويلة ولكنني مع الأسف لم أكن أراها كثيراً ، فقد كانت تعيش مع مَرَبِّئِهَا على حِدَّة ، وَتَتَّبَعُ نِظَاماً خاصاً في الدرس والرياضة والأكل .

وتوالت الأيام وبينما كنت مَرَّةً في حجرتي جالساً بجوار النافذة ، أقلب بين يَدَيَّ الروايةَ الإنجليزيةَ التي كنتُ أطلعها في أوقات فراغي ، رأيتُ ورقةً صغيرةً تسقطُ من بين صحائفها ؛ فالتقطتها ونظرتُ إليها ، فإذا مكتوبٌ فيها الجملةُ الآتيةُ :
« أنا أُحِبُّكَ . أُفِدِّيك بالروح ! »

وأخذتُ أُدَقِّقُ النظرَ في الورقة ، وأعيد قراءتها ، وقد غمرتني دهشة عظيمة . وكانت الجملةُ مكتوبةً بخطِ نِسْوِيٍّ رقيق . . . إن الورقة قد وُضِعَتْ اليومَ فقط ، فالكتابُ في يدي منذ حضوري ، وكثيراً ما عَيَّنْتُ به ، وَقَلَّبْتُ صفحاتِه . إذاً هناك سيدةٌ قد كتبتُ هذه الورقة ، ووضعتها في روايتي ؛ هذه بديهة . تلك السيدة من تكون؟؟ إن الرواية لم تخرج من حجرتي ، فهي دائماً على المقعد المريح ، ولا أذكر مطلقاً أن من السيدات من زُرنَ الأسرة ! إذاً فالسيدة من أهل البيت . . . وارتجفت . . . وأخذتُ أُذَرَعُ

الفرقة بخطواتٍ مضطربة ، وأنا أقدحُ فكري بحثاً واستقصاءً . . .
وبفتةٍ أمسكتُ عن السير ، ودعكتُ الورقة في يدي غاضباً
ورميئها . وكنتُ في ذلك الوقت بجوار النافذة ، فرأيتُ في
الحديقة صديقاً وزوجتيهما جالسين تحت المظلة الحمراء ، فرففتُ
صوتي قائلاً :

يا أصدقائي الأعزاء ، يمكنني أن أوكدَ لكم أنني غيرُ أبله !
فرفعوا عيونهم إليّ ، مدهوشين متسائلين . . . فقلتُ :
مؤامرة غيرُ ناجحة . دُعاةٌ فاشلة . هذا كل ما عندي !
فأجابني « عباس » وهو يضحك :

ربنا يشفيك !

وقضيتُ اليومَ على عادتي ، ولم أُنحِ للأسرة بشيء . وكما
سألوني عن المؤامرة المزعومة ، وسرِّ غضبي ؛ تضحكتُ
وحولتُ مجرَى الحديث . واعتبرتُ الموضوع مزاحاً لم يُصادفه
التوفيق ، وبذلك حَسَمْتُ الأمرَ معهم . ولكنني بالرغم
من ذلك كنتُ دائمٌ التفكير في هذه الجملة الساحرة ،
أستعيدها لنفسي غيرَ مرة . وعند ما أكون أمامَ زوجتي

صديقى ، أجدنى أطيل التأملَ فيهما ، مفاضلا بينهما فى
الجمال والرشاقة

وفى غدٍ ذلك اليوم ، قصدتُ حجرتى بعد الغداء ، وتمددتُ
على المقعد المريح ، لأثقلَ كما تعودتُ . . . ولما استيقظت تناولتُ
الرواية الإنجليزية لأطالعَ فيها ، فما إن فتحتها حتى سقطتُ
منها ورقةٌ فى حجم ورقة أمس ، فأسرعتُ بالتقاطها ، فإذا
مكتوبٌ فيها : « أنا أحبك ، أفديك بالروح ! » . . . وكان
خطها مماثلاً خطَّ الورقة الأولى ، فقفزتُ من المقعد ،
وقد اعتزمتُ أن أضعَ حدًا لهذه الألاعيب . وكانت المرأةُ
فى طريقى ، فرأيتُ خيالى فيها ، فترينتُ ، ووقفتُ أمامها
برهةً أتأملُ نفسى . ثم تنحيتُ عنها بضعَ خطوات ، وماهى
إلا أن عدتُ إلى المرأة ثانية

شابٌ قصير القامة ، نحيف الجسم . بشرةٌ سمراء ، ولكنها السمرّة
الحلوة . عينان صغيرتان ترسلان بريقاً يتوهج ، فيها جاذبية
قوية . ماذا يضيرهما أن تكونا كعيون القطط كما يشاء
أصدقائى أن يصفوها ؟ ؟ الشعر مُفلفل . . . وماذا يعيب ؟
هو مرغوب فيه من الحسان : وكل هذا لا يساوى شيئاً

بجانب ما ينطلق به لساني من ظريف الفكاهة وساحر البيان !
وانقضت فترة أقتت بعدها على أثر جلبة من سيارة عابرة .
وقصدت في الحال منضدة الزينة ، وأخذت أنعطر ،
واستبدلت برباط رقبتى رباطاً آخر من الصنف الثمين . وذهبت
إلى النافذة . فوقع بصري على « أمل » ، زوجة صديقي « عباس » ،
وكانت جالسة على انفراد تحت المظلة الحمراء . ولحنتني ، فأشارت
لي في ابتسامة جذابة أن أنزل ، فهرولت إليها ، وما كدت
أقرب منها حتى صاحت :

يا سلام ! ما هذه الرائحة ؟ إننا نستطيع أن نشمك على
بعد عشرين متراً !

— وهل هي رائحة طيبة ؟

— بديعة جداً . اجلس تسامر ، إنهم تركونا ، وذهبوا

لشراء بعض الحوائج من البلد

فجلست وقد بدا عليّ بعض التهيّب ، ثم سمعتها تقول :

ألم تُنمّ بعد مطالعة روايتك ؟

— روايتي ؟ !

— نعم روايتك الإنجليزية ، هذه التي في يدك !

وكانت الرواية في يدي، اصطحبتها معي دون أن أشعُر ،
فقلتُ وقد أصابتنِي رَجْفَةٌ :

كلا لم أتمّها بعد !

— اسمح لي أن أقول لك إنها من الروايات الشعبية .

— وهل قرأتها ؟ خبّريني !

— كلا ، بل تصفّحتها مرارا .

— تصفّحتها مرارا ؟ ! أين ؟

— في حُجرتِكَ طبعاً .

— وهل أتيتِ إلى حجرتي وأنا غائبٌ عنها ؟

فأرسلتُ ضحكةً ناعمةً ، وقالتُ :

ألا تعلم يا صديقي أن من واجباتي مراقبة أعمال الخدم

مراقبةً تامّةً ؟ أنا خلفهم في كل خطوة يخطونها . ولكن

أأنتَ على رأي أن الرواية من النوع الشعبي ؟ ؟

— صحيح ، من النوع الشعبي !

— خالية من العواطف !

— العواطف ؟ !

— أقصد طبعاً العواطف الغرامية .

وتتابعتُ دقاتُ قلبي ، وقلتُ في صوتٍ ضعيفٍ :

أبروئكِ النوعُ العاطفيُّ من الروايات ؟

— جداً ! . . .

وتراختُ على مَقْعَدِهَا ، ورفعتُ يديها ، وعَقَدْتُهُمَا برأسها في
شَكْلِ جَدَابٍ ، فراغني جمال ذراعَيْهَا وما هما عليه من
طراوةٍ والتِفَافٍ !

وجاء الخادم في هذه اللحظة ، يدعوها إلى « التليفون »
فقامتُ بعد أن أَلْتُ على نَظْرَةٍ فائتة . ومكثتُ برهةً وأنا
مشدوه ، ولكنَّ الغبطة كانت تَشِيحُ في نفسي كُلِّهَا . ونهضتُ
أسير في الحديقة مطرِقاً أفكراً ، أحاولُ أن أنتزعَ من نفسي
إِرَادَةً قَوِيَّةً !



وفي المساء بعد أن تَعَشَّيْنَا ، قَصَدْنَا إلى حجرة « البيان »
فَقَرَّبْنَا القهوة ، ودَخْنَا بضعَ كَفَافٍ ، ثم خرج « عباس »
وفريد وتَبِعْتُهُمَا « أمل » ، وبقيتُ بمفردي مع الأختِ
الأخرى « حياة » ، فأردتُ أن أخرجَ على أثرهم ، ولكن
« حياة » ذهبت إلى « البيان » وبدأتُ تَعْرِفُ عليه ،

فرايتُ من حُسْنِ الدَّوْقِ أَنْ أُسْتَمَعَ إِلَيْهَا . وَكَانَ اللَّحْنُ بَدِيعًا ،
يُحَرِّكُ فِي الْقَلْبِ أَذَقَ العَوَاطِفِ وَأَرْقَبَهَا ، فَأَصْنَعْتُ إِصْفَاءَ
مَسْحُورٍ ؛ مَسْتَمْتَعًا بِسَهْوِ النَغَمَاتِ . . . وَمَا إِنِ اتَّهَتْ « حَيَاةٌ »
مِنَ العَزْفِ حَتَّى صَحْتُ مُتَحَمِّسًا أَهْنَتُهَا . فَالْتَفَتْتُ إِلَى شَاكِرَةٍ
وَقَالَتْ :

أَحَقًّا أَعْجَبَكَ اللَّحْنُ ؟

— مطربٌ جدًّا !

— تَظُنُّ مَنِ الَّلَّفَهُ ؟

— موسيقىٌ عَظِيمٌ بِلَا رَيْبٍ !

— موسيقىٌ عَظِيمٌ ؟ !

— بالطبع !

— وَإِذَا قُلْتُ لَكَ إِنِّي أَنَا الَّتِي أَلْفَتُهُ ؟ !

— لَمْ يَنْجِبْ ظَنِّي إِذَا . . .

فَضَحَكْتُ ، وَضَحَكْتُ مَعَهَا . . .

وَوَقَعَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ مِنْ يَدِهَا مِندِيلُهَا الحَرِيرِيُّ ، فَاسْرَعْتُ
وَالْتَقَطْتُهُ مِنَ الأَرْضِ ، وَتَضَوَّعْتُ مِنْهُ رَائِحَةٌ لَطِيفَةٌ ، رَائِحَةٌ

تماثل البنفسج... هذه الرائحة ليست غريبةً عنى مطلقاً ، فأين
شممتها ؟ ورفعتُ المِندِيل إلى أنفى ، وقلت :
إنها رائحةٌ طيبةٌ جداً !

— مزيج من عطر خاصٍ يسمى « ليلة غرام » !
واستأذنتُ « حياة » فى التَّغَيُّبِ لحظةً ، ومضيتُ مسرعاً إلى
البهْر ، وأخرجتُ من مِحْفَظتى الورقةَ المَهْوَدَةَ المكتوب فيها :
« أنا أحبك . أفديك بالروح ! » وشممتها ، فإذا العطرُ واحد ،
وأعدتُ شَمَّها مراتٍ كثيرةً إن الأمرَ خطير ! . . .
وعدتُ إلى الحجرة ، وأنا أشعر كأنَّ غمامةً تَفَشَى عَيْنِي ،
وسمعتُ « حياة » تقول :

أَعْجَبِكَ هَذَا الْعِطْرُ ؟؟

— جداً !

— إنه آخر ابتكارٍ لحل « برنوا » الشهير ، ولقد أوصيتُ
بإحضار زجاجتى من « باريس » مباشرة ، وأنا معتزةٌ بها . . .

— من باريس ؟ !

— أوكد لك أنك لن تجدَ زجاجةَ أخرى من هذا العطر

فى مصرَ كلها !

— مدهش ... إذا هذا العطر خاصٌ بكِ . بكِ وحدكِ ؟

— بالطبع . وإني أستعمله لمناديلي فقط .

— ولكن ... إنما ... يجوز مثلاً ...

— ماذا ؟

— أصبح أن هذا العطر خاص بك أنت . أنتِ وحدكِ ؟ !

فنظرتُ مُحَدِّقَةً فِيَّ ، ثم ضحكتُ ضِحْكَةً سَاحِرَةً ، وقالت :

— ما لك يا شاكر ييه ... ؟ لست كعادتك ... ؟ !

— عفوا ... أشعُرُ بأن رأسي غيرُ موزون .

— لعلك قد أثقلتَ في شُرْبِ « الويسكي » ؟

— كلا ... وإنما ... الظاهر أني دَخَنْتُ كثيراً ،

ولكن فلنعد لموضوع العِطْرِ ، عطر « ليلة غرام » !

فاندفعتُ تضحك وهي تقول :

أَيُّهُمُكَ هذا العطر إلى هذا الحد ... ؟ !

— لا يُهِمُّنِي كثيراً ... إنما ...

— ربما تريد أن تُوصِيَّ لك بزجاجة منه ، تُضِيفُهَا إلى

المجموعة الفريدة التي عندك !

— المجموعة التي عندي ؟ !

— رأيتها منذ يومين ، عند ما فتحتُ دولابَ ملابسك .

— أنتِ فتحتِ دولابَ ملابسى ؟

— العذرة . أنت تعلم — بلا ريب — أنه يحوى

بياضات المنزل !

— صحيح !

— وقد خصونى بهذا العمل دون سواى .

كنتُ أسمع كلامها وأنا أرتجف . إنها هى أيضاً تترددُ على

حجرتى أثناء غيابى ... إذا ... هذا مدهش ... ولكن ...

ورفعتُ بصرى إليها ، فقابلتني عيناها الخضراوان ، وكانتا

تُشعَّان بلَمعة وهَاجة فيها فتنة وإغراء .

نَحَفَضْتُ رَأْسِي ، ثم غَضَضْتُ طرفي لحظة ، ورأيتُ نفسى

أُدِنِي مَقْعَدِي منها ، وقلتُ لها بلا تردد :

قرأتُ اليومَ فى روايتى الإنجليزية التى أُطالِعها خيراً لطيفاً

عن ترَاسلِ العُشاق !

ووجدتُ فى نفسى الشجاعةَ لأن أُحدِّقَ فيها بعد قولى هذا

تحديقاً له معناه . فقامتُ تتناول لِفَافَةً من عُلْبَةٍ على المِنضَدَةِ
وأشعلتها وهي تبتسم ، وسمعتها تقول :

وما هو هذا الخبز اللطيف ؟

— أَيِهْمُكَ أَنْ تَسْمِعِيهِ ؟

— جَدًّا !

وأرسلتُ دُخَانَ لِفَافَتِهَا وهي تضحك ، فقلت وقد شَجَعَنِي
انتصاري :

كان المحبان يضعان رسائلهما الصغيرة في كُتُبٍ يتبادلانها
على سبيل الاستعارة

— طريقةٌ قديمةٌ ، ولكنها ناجحةٌ دائماً

وَأَلَقْتُ عَلَى نَظْرَةٍ خَاطِطَةً ، ثُمَّ لَقَمْتُ رَأْسَهَا فِي تَلَطُّفٍ ، وَبَدَتْ
مِنْهَا حَرَكَةٌ زَائِعَةٌ وَهِيَ تُبْعِدُ اللَّفَافَةَ عَنْ فَمِهَا لم يَعدُ للشك
سبيلٌ إلى قلبي . حسبى هذه النظرة . وما تبعها من حركة وتلفُّت .
إنها أفصح من مقال وشعرتُ بأن قلبي يتوثَّب

وفي هذه الساعة دخل علينا « فريد » زوجها . فتملَّكتُ
نفسى ، وإذا هي تقول له :

إن « شاكر بك » قد أعجبه عِطْرِي الجديد ، ويرغب

أَنْ يُزَاحِنِي فِيهِ ، فَأَرْجُو أَنْ تَمْنَعَهُ بِكُلِّ مَا فِي وَسْعِكَ ، حَتَّى
لَا يُوصِي لِنَفْسِهِ بِزَجَاجَةٍ مِنْ « پَارِيسِ » !
فَتَضَاحَكْتُ ، وَخَرَجْنَا ... يَا لَلَّهِ ! مَا أَبْدَعَ دَهَاءَ النِّسَاءِ ، وَمَا
أَدَقَّهُ وَأَقْوَاهُ !

وَأَمْضَيْتُ لَيْلَةً هَنِئِيَّةً كُلَّهَا أَحْلَامٌ جَمِيلَةٌ ، كَانَتْ تَتَرَاءَى لِي فِيهَا
« حَيَاةٌ » بِعَطْرِهَا الْفِيَّاحِ يَتَضَوِّعُ مِنْ رَسَائِلِهَا الْغَرَامِيَّةِ ذَاتِ الْخَفَاءِ ،
وَتَتَمَثَّلُ لِي غِبْطَتِي بِمَا وَضَحَ لِي مِنْ سِرِّ هَذَا الْحَبِّ الْمَفَاجِيءِ .
وَفِي الْغَدَاةِ فُوجِئْتُ بِخَبْرٍ غَرِيبٍ ، وَهُوَ أَنَّ « أَمْلَ » زَوْجَةَ
« عَبَّاسٍ » تَسْمَحُ لِنَفْسِهَا بِاسْتِعْمَالِ عَطْرِ أُخْتِهَا « حَيَاةٍ » ...
إِذَا لَقَدْ تَعَقَّدَتِ الْمَسْأَلَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً ! وَاسْتَعَادَ الشُّكُّ مَكَانَهُ مِنْ
نَفْسِي . الْأَخْتَانِ تَسْتَعْمَلَانِ عَطْرَ الْبَنْفَسَجِ ، وَتَدْخُلَانِ حَجْرَتِي
فِي مَغْيَبِي . وَكِلْتَاهُمَا تَتَنَافَسَانِ فِي إِظْهَارِ دَلَالِهِمَا أَمَامِي ، وَتَتَبَارَيَانِ
فِي إِتْقَانِ شَيْءٍ كِلَيْهِمَا عَلَيَّ لِاصْطِيَادِي ... وَمَضَى الْيَوْمُ وَالْمَسْأَلَةُ
تَزْدَادُ غَمُوضًا ، وَحَالَتِي تَزْدَادُ ارْتِبَاكًا وَاضْطِرَابًا !

وَتَتَابَعْتُ أَيَّامَ الْآخِرِ وَالرَّسَالَةَ تَصِلُ إِلَى بَانتِظَامٍ عَجِيبٍ ، وَبِالطَّرِيقَةِ
نَفْسِهَا ... دَاخِلَ الرِّوَايَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَهِيَ هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ ،
قِطْعَةً وَرَقٍ صَغِيرَةً مَعْطَرَةً بِعَطْرِ الْبَنْفَسَجِ الْمَعْرُوفِ ، مِنْ « مَارِكَةُ

برنوا « مكتوب عليها بالخط الصغير : « أنا أحبك . أفديك بالروح » !

ووجدتني أميلُ إلى الوَحْدَةِ ، فكنتُ أسهرُ الليلَ في غرفتي أرقُبُ نجومه من النافذة ، شبهَ حالمٍ . . . وكثيراً ما كنتُ أتخيلُها « هي » قادمة تَسْتَرِقُ الخُطَا ، فأرهِف السمعَ لحفيف ثوبها . إنها لا شك قادمة لترتميَ بين أحضاني . هي . هي . . . ولكن ، من هي ؟ أ « حياة » هي أم « أمل » ؟ ! !

ومن العجيب أنني لم أكن أستطيع أن أفاضلَ بينهما ، فكلُّ منهما رائعُ الحُسن . ولكن أليستَ هما زوجتي صديقي . . . ؟ وبدأ ضميري يثور على ، فيعذِّبني بوخزه الحاد . وعزمتُ على الهرب في غدي : سأسافر خلسةً دون أن يشعُر بي أحد ، حفظاً لكرامة الأسرة . . . فإني لأخشى عليها ، عليها « هي » ، أن يفضحَ سرَّها موقفُ الوداع !

وأضيتُ وقت الغداء معهم صامتاً مهموماً ، أفكرُ في صيغة الرسالة التي سأتركها في حجرتي . أريد أن أضمتها معنيين مختلفين ، فإذا قرأها « الأخوان » لا يفهمان منها إلا وداعاً عابراً ، وإذا قرأتها « هي » فهتتُ على الفور مرماها .

ولاحظ أفراد الأسرة شروود ذهني ، ولكنهم لم يُضايقوني بالأسئلة ،
وحاولوا إضحائي ، فلما لم يجدوا مني ميلاً للضحك تركوني لشأني !
وقتُ بعد الطعام إلى غرفتي ، وأُقلتُ مصارع النوافذ
وتمددتُ على المقعد المريح ، وأطبقتُ جفني لتوايئني الطمأنينة ،
واستجماعُ الذهن . . . كل شيء كان مُعدًّا ، إلا الرسالة الصغيرة
التي اعتزمتُ تَرهّكها قبل سفري . كنتُ أفكرُ في صيغتها
وأنا على حالي مُطبقُ الأجفان !

وبينما كنتُ على هذه الحال ، شعرتُ بحركة خفيفة وراء
الباب ، فأنصتُ واجفِ القلب . هناك شخصٌ على مقربةٍ
من الباب ، يتردد في الدخول . . . وجبستُ أنفاسي المضطربة
وتناوتُ . ورأيتُ الباب بعد حين ينفّتح ، وسمعتُ حفيف
ثوبٍ يقتربُ من مقعدي ، وبعد برهة فتحتُ عيني فإذا بي
أرى . . . ماذا ؟ . . . « تفاحة » ممسكة بالرواية لتضع
فيها ورقة صغيرة ! . . . فصحتُ :

ماذا تفعلين هنا يا « تفاحة » ؟

والتفتتُ الصبيّة مرّاعة ، ثم سارتُ إلى ذليّة خافضة
الرأس ، وقالت :

والله العظيم ، ما عملت حاجة !

وتناولت الكتاب ، وأخرجت الورقة ، فسبقَ عطرُها إلى ،
وقرأت : « أنا أُحِبُّكَ ، أفديك بالروح ! » . وكدتُ أخطفُ
الطفلة ، وألقي بها من النافذة ، ووجدتها قد تعلقت برقبتي ، وقالت :
انت زعلان ؟ !

فأجبتها ، ووجهي محتقن :

لا والله فرحان خالص !

ورأيتهما على وشك البكاء ، فأجلستها على ركبتي ، وقلت لها :
أيمكنُ أحدَ قد أغراكِ بفعلِ ذلك ؟
— أبدأ والله العظيم !

— إذا أنتِ التي تكتبين الورقة ، وتضعينها في الكتاب
كلَّ يوم ؟

فأومأت برأسها : نعم ، وهي تدعكُ أصابعها .
قلتُ لها :

ولأى غرضٍ تفعلين ذلك ؟

فقلت وعيناها نديتان بالدموع :
لأنى أُحِبُّكَ !

فَأَظَلْتُ النِّظَرَ فِيهَا ، وَقَلْتُ :

أَتُحِبُّنِي إِلَى هَذَا الْقَدْرِ ؟

فَأَجَابَتْنِي فِي نَعْمَةٍ فِطْرِيَّةٍ هَادِئَةٍ :

نَعَمْ أُحِبُّكَ وَأُفْدِيكَ بِالرُّوحِ !

فَانْطَلَقْتُ مِنْ ضِحْكَةٍ عَالِيَةٍ . وَأَحَطْتُهَا بِذِرَاعِي ، وَقَلْتُ :

مَنْ تَعَلَّمَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ ؟

— مِنْ مُعَلِّمَةِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي تُعْطِينِي الدَّرْسَ فِي مِصْرَ كَانَتْ

تَقُولُهَا أُمَامِي كَثِيرًا !

— لَكَ ؟

— لَا ، أَبَدًا ، إِنَّهَا لَا تُحِبُّنِي وَأَنَا لَا أُحِبُّهَا ، كَانَتْ

تَقُولُهَا وَهِيَ تَنْظُرُ دَائِمًا إِلَى سَقْفِ الْغُرْفَةِ ، ثُمَّ تَتَنَهَّدُ

وَكَثِيرًا مَا كَتَبْتُهَا عَلَى الْوَرَقِ النَّشَافِ ، وَوَضَعْتُهَا فِي كِتَابِ

أُسْتَاذِي الَّذِي يَعَلِّمُنِي الْحِسَابَ !

— . . . وَلِمَ أَخْفَيْتِ هَذَا عَنِّي ؟

— كَمَا أَخْفَتُ مَعْلَمَتِي أَمْرَهَا عَنِ أُسْتَاذِ الْحِسَابِ !

فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى الْخِزَانَةِ ، وَأَخْرَجْتُ لَهَا « بَاكُو

شِكُولَاتِه » نَاولْتُهَا إِيَّاهُ ، وَذَهَبْتُ مَعَهَا إِلَى النَّافِذَةِ ، فَوَقَعَ

نظري على « حياة » و « أمل » تتنزهان في الحديقة ،
فوقفتُ أتأملُهُما طويلاً ، والصمتُ يَحِيْمُ عليّ ...
وفي الصباح حَزَمْتُ متاعى فى ساعة مُبَكَّرَة ، وأقْلَنِي
القطارُ إلى مصر
ومكثتُ أسبوعاً لا أقابلُ أحداً ، ولا أنظر فى مرآة . . . !

پہلے

مضى صديقي « فرير » بنفس عليّ من ذكرياته البعيدة ، قال :

ناداني عمّي صباح يوم من الأيام ، وكان قد انتهى من تناول
فطوره ، فترجع على مُتَكَئِهِ المُرِيحِ وَسَطَ وسائده ، وجعل يُدَخِّنُ
ويحتسى القهوة ، فلما مثلتُ أمامه ، أجلسني بجواره ، وقال :

اسمع يا « فريد » ، لقد كبرتُ سنّي كما تعلم ، ووهنتُ
قواي ، فلم أعد أستطيع الإشرافَ على شؤون الضيعة . فهل لك
في أن تأخذَ مكاني ، فتعيني على أن أستريح ؟ . . . إني
عميد الأسرة ، وأنت فتاها الوحيد .

فأردت أن أتكلم ، فاستأنف قوله مقاطعاً :

لن تخسرَ وظيفتك في الوزارة ، حسبي منك الخميس
والجمعة من كل أسبوع ، تقضيها في الريف .



بعد أيام من هذا الحديث ، أخذت مكان عمّي في « الدائرة » ،
وبدأتُ في تدبير أعمال الضيعة بنشاط وحماس ، متتبعاً في ذلك
الأنظمة الأساسية التي سنّها عمّي لتكونَ دستوراً للعمل .

وقدموا إلىَّ يوماً كشفَ المرتباتِ الخاصِّ بموظَّفي الضيعة ،
فقرأه الكاتبُ أمامي اسماً اسماً . فكنت أستوضحُه كلَّ
شخص ، فيزوِّدني عنه بمعلومات مفيدة ، حتى وصل إلى اسم
« الشيخ حميدة الباز » ، فقلت فيه ابتساماً مُرِيبة ، فقلت :
ماذا ؟

— لا شيء .

— ما صناعة « الشيخ حميدة الباز » ؟

— أحد خُفراء الضيعة .

وعاد يتسم ابتسامته المُرِيبة ، فأمررتُ يدي على جَبْهتي ،
وانطلقتُ أُجمَعُ بعض حوادث نَأَى بها الزمن ، وأنا أتمم :
الشيخ حميدة الباز ، الشيخ حميدة الباز !!

ثم رفعتُ رأسي ، وخذقتُ في وجه الكاتب ، وقلت :
أليس هو ذلك الشَّرِيرَ الكبيرَ ، صاحبَ الجرائمِ المعروفة ؟
— هو بعينه .

— وتعينونه خفيراً ، وتُسَكِنونه الضيعة ، وتمنحونه

مرتباً شهرياً . . ! ؟

— هذا هو الواقع يا سيدي !

— ومتى الحقتموه بهذه الوظيفة ؟

— منذ عشرة أعوام . . . !

نهضتُ من فوري إلى عمي ، فإذا هو على مُتَكِّئِهِ الوثير ،
ملتفٌ بعباءته الفضفاضة الحمراء ، على رأسه « طاقية » بيضاء
من الصوف مزركشة الحافة . وكان مشغولاً بسعوطه يَنْشَقُّهُ .
فلما رأني مقبلاً عليه ، قال وقد بسط منديله المَحَلَّأوى الكبير :
خيرًا إن شاء الله !

— كله خير يا عمي ، لقد جئتُ أسألك عن « الشيخ

حميدة الباز » . . . !

فأخذ بِطَرَفِ مَنَدِيلِهِ ، وراح يمسح عينيه وأنفه ، وقال :
شيخ مَنَسِرِ الناحية ؟

— هو بنفسه !

— أتوغب أن تزيدَ في راتبه ؟

— بل العكس . . . إني أفكر في طرده !

فابتسم ابتسامة لا تخلو من تَرَمُّتٍ ، ثم عطسَ عطسةً

خفيفة ، وقال :

أتريد أن تُنتَهَبَ المزرعة ؟

— واين إذا حُرَّاسُ الأَمْنِ ؟ إن هذا يشجّع الأشرار
على فرض ما يشاءون من إتاوات على أصحاب المزارع !
فأخرج مِسْبَحَتَهُ ، وراح يداعِبُ حَبَّاتِهَا وقتاً وهو صامت ،
ثم قال :

أفعل ما تراه صواباً .

ثم حدق فيَّ بعين ذاتِ بريقِ خاطف ، وقال :
لِتَعْلَمْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنِ كُلِّ خَسَارَةٍ تَلْحَقُ
بِضِيعَتِنَا !

وتركتُ عَمِّي تَتَنَازَعُنِي شَتَّى الدَوَافِعِ . وفي المساءِ عندما
التقيتُ به على مائدة العشاء ، قال لي وهو يشرب حَسَاءَهُ :
هيه يا فريد ، ماذا فعلتَ بصاحبك « الشيخ حميدة الباز » ؟
— تركته كما هو ، يسرح في الضيعة كما يشاء ، ويأخذُ
الإتاوة من خِزَانَتِنَا !

— حسناً فعلت !

ومسح عَمِّي شاربَه الأَشْيَبِ ، وقد بَلَّغَتْهُ قَطَرَاتُ الحَسَاءِ وقال :
أتذكر حادثةَ السطو المشهورة التي وقعت في البلدة المجاورة
لضيعتنا : « كفر عتيق » ، وقتلَ فيها أحدُ خفراء الحكومة ؟

— أذكر شيئاً منها .

— كنتَ في التاسعة من عمرك ، وقد صَحِبْتَنِي وقتئذٍ إلى الضيعة لنقضِ إجازة العيد كانت ليلةً ليلاً يزأر هواؤها البارد ولا يَنِي . وكنتَ نائمًا في فراشك ، فأفزعك إطلاق الرصاص ، فهولتَ إلى بقميص النوم ، تسألني ما الخبر ؟ وتحتمي في عباتي !

— لقد كانت جَلَبَةُ الرجال وصُراخُ النساءِ العالى يُدَوِّيَانِ مع الريحِ دَوِيًّا هائلًا

— وخرجنا إلى « الدَّوَارِ » ، « ومرَّجان » العبدُ يُنيرُ الطريقَ أمامنا بمصباحه المُغْبَرِّ ، فوجدنا الناظرَ والخفراءَ وبقيةَ الموظفين مجتمعين يتشاورون ، والفرعُ مرسمٌ على وجوههم لقد فوجئوا بأن القاتل من رجال الضيعة !

وتناول عمي بين أنمليته قليلاً من عُلْبَةِ النَّشُوقِ ، وراح يَنشَقُهُ في استمرار ومال برأسه على ظهر المُتَكِّ ، وأسبل جفنيه ، ثم استأنف حديثه قائلاً :

وقد طَوَّقَ « المأمور » الضيعة ، وقَتَّسَ مبانيها ، وقبض على نفر من سكانها .

— وهل كان القاتل منهم ؟

— لم تثبت التُّهْمَة على أحد ، وإن كان الناس جميعاً

يؤكدون أن بطل الحادثة هو « الشيخ حميدة الباز » !

وسَكَتَ عمى ، وقد بدأت تفشاه موجة من الخمول . وقتُ
إلى حجرتي ، وانطلقتُ أفكرُ في أمر هذه الحادثة ، وما تلاها
من حوادثٍ على شاكْلِها ، كنتُ أسمعها من أفواه رجال الضيعة
عند ما أقصدُ إليها ، أيامَ طفولتي ، مع عمى . . . كانوا يروون هذه
المغامرات عن « الشيخ حميدة الباز » على أنها قصصٌ للمسامرة ،
فأستمع إليها في شغفٍ ممزوجٍ بتخوُّفٍ ، وأقضى ليلتي قلقاً
المُضْجَع ، تتراءى لي الخيالاتُ المروِّعة ، ومن بينها شبح هذا
اللسِّ العريق في الإجرام ، وهو يقتحم الحجرة شاهراً في وجهي
« بلطته » الحادَّة الملوَّثة بالدماء .

وقد كان في وُسعي أن أشهده ، ولكنني لم أفعل ؛ بل
كنتُ أتوخى دائماً أن أتجنَّب رؤيته . وظَلَّلتُ أسمع عنه سنةً
بعد سنة ، ثم شغلتنى الدراسةُ عن زيارة الضيعة ، وتغيَّبت بعد
ذلك أعواماً في أوروبا ، فتطايرت من رأسي أخبارُ هذا السفَّاك ،
حتى كدتُ أنساه كلَّ النسيان .

واقضى شهر على حديث عمي ، وسافرتُ إلى الضيعة لتفقد أحوالها ، وكانت أولَ زيارة لي منذ أن توليتُ إدارتها .
وصلتُ إلى الضيعة فلم أجد ثمةَ تغييراً يُذكر ؛ فالدار القديمة ذاتُ الطبقة الواحدة كما هي ، والمتنزه الصغير ذو الشجيرات الهزيلة ما يزال أمامها ، و « مَرَّجان » العبد واقفٌ بالباب يستقبلنا بوجهه اللامع الباش .

وبعد أن نلتُ قسطي من الراحة ، خرجتُ إلى « الدَّوَّار »
فما إن شاهدتُ الناظر ، حتى بادرتُه بقولي :
والشيخ حميدة الباز . . . كيف حاله ؟
— بخير !

— ألك أن تدعوهُ إلى ؟

وبعث الناظرُ رسولا ليأتيَ بالشيخ ، وجلستُ على المصطبة ، ذات « الكلم » الصوف الأحمر الفاقع . وبدأتُ أشرب القهوة ، وأنا أصوِّر في مخيلتي شكل « الشيخ حميدة الباز » كما أتوهمه . . . رجل سبط القامة ، قوى العضل ، ذو وجه مُتَجَهَّم ، ومِشْيَةٌ ثقيلة ، ينثر الفرعَ حوله حيث تَلَفَّت .

وظهر الرسول وخلفه شخص قميء أعجمي ، غائر الأشداق ،

يجرّ نفسه جرّاً . دنا مني ، وانحنى على يدي يريد أن يقبلها
وتتم يقول :

خدّامك حميدة الباز !

وجلس الرجل على الأرض ، وأخذ يسألُ سُعالاً كريها
يتزلزل منه جسّانه ، فتحسّبه يتناثر قطعاً ...

وبعد أن استعاد قوته ، قلت له :

كيف حالك يا شيخ حميدة ؟

— معدن يا سيدنا البيه ، مادنا في خير سعادتك !

ورحتُ أنظرُ إلى هذا الهيكل المزعزع ، ذلك البناء المحطم ،
أتفحصه في عجب . وأمرتُ له بقهوة ، وناولته لفافة ، فأخذها
شاكراً ولكنه لم يشعلها ، بل أخرج عُلبة تبغ ووضعها فيها
بعناية ، وأخذ يلفُ من دخانه لفافة ، فقلت له :

لعلك لا تستلذّ غيرَ تبغك ! ؟

فابتسم ابتسامة وديعة ، وقال :

إني أحتفظ باللفافة لأُمّي !

فناولته أخرى ، وقلت له :

هذه لك ، على شرط أن تدخنها !

فأشعلها ، وجعل يدخنها ، ويحتسى معها القهوة في سرور .
وقلت له :

كيف حال الأمن في مِنطَقَتِنَا ؟

فرفع رأسه ، وحدق في بعينين كأنهما جَذْوَتَا نَارِ تَتَوَهَّجَانِ
تحت الرماد ، وقال في لهجة حازمة :

وهل تظن أن أحداً من الأشرار تحدّثه نفسه بشيء ما دمتُ حياً ؟
فأردتُ أن ابتم هازئاً ، فخانتني شفتاي ، وشعرتُ بكلمات
الرجل تمرق كالنصال الحادّة إلى شغاف قلبي .

وانطلق بعد ذلك « الشيخ حميدة الباز » يتكلم ، فأخذ يروى
لي أخبار أسرته ونسبه العريق الذي ينتهي إلى قبيلة من
« قيس » . فقلتُ :

أعربي أنت ؟

— لقد جاء جدّي الأكبر محارباً مع الغزاة الفاتحين . . .

— ما شاء الله !

— وقد استقرتُ قبيلتنا بعد ذلك في « مُدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ » ،

وكنا دائماً يُعتمد علينا في الفتح وإخاد الثورات . . . إن التاريخ
ليتغنّى بماثرنا ، ويروى وقائعنا ، ويذكر مجدّ الفتيان والكهول منا .

وكانت الدواب قد أُسْرِجَتْ ، وأُعدَّت للركوب ، فقلت
لـ « الشيخ حميدة » :

ستتناول معي طعام الغداء . . . السلام عليكم !

فرفع يديه إلى رأسه يردّ السلام .

وتناول معي « الشيخ حميدة الباز » الغداء ، فقضيتُ معه وقتاً
من أطيب الأوقات ، إذ كان يقصُّ عليَّ في جلسة الطعام طريفَ
النوادر والقِصص ، فوجدت فيه مُحدِّثاً أنيساً ذَلِقَ اللسان . وقد
وصفَ لي — فيما حدَّث — حبه لأمه ، وعطفه على ريبتته التي تبناها
بعد موت زوجته ، ولم يعيش له من أولادها أحد . فكان لهذه
الريبتة من نفسه عِزازةُ الابنة الحقة ، يتعمَّدها ببرّه ، ويحنو
عليها حنوَّ الأبِ الشفيق .



وعدتُ بقطار المساء إلى القاهرة ، ودخلتُ على عمِّي ، فوجدته
كعادته على المتكأ الوثير ، وبجانبه عُلبة نشوقه الفِضيّة . فقلت
له من فوري :

لقد رأيتُ الرجل وجلستُ معه ! .

— أيّ رجل ؟ .

— صاحبنا شيخ المنسِر ! .

فابتسم عمى ، وقال : .

ما أعظم شجاعتك ! .

— إننى عند ما أتصوّر أننا نعطي هذا الرجلَ الفائى مرتباً

شهرياً نظيراً لإشرافه على حفظ الأمن ، وهو غيرُ قادرٍ على دفع

ذباية عن وجهه ، لا أتمالك من الإغراق فى الضحك

فقال عمى ، وقد بدا عليه بعض العُبوس :

إِذَا لِمَ لَا تَقْطَعِ الْمَرْتَبَ ؟ .

— كلا ، إني لأتبرّع به رحمةً بهذا البائس الضعيف !



وفى المرة التالية عند ما سافرتُ إلى الضيعة ، سألتُ عن

« الشيخ حميدة » ، فأخبرونى بأنه ذهب إلى « كفر الطَّبَّال » ،

للاحتفال بزواج رَبيبتِهِ . وعلمت من « مَرَجَان » العبد أنه أتفق

فى جَهازِها وفى عُرْسِها ما لا يستطيعه إلا الأثرياء . وأضاف

« مرجان » إلى ذلك قوله :

لقد كنا نسأله : لِمَ كل هذا يا « شيخ حميدة » ؟ فكان

يجيبنا فى بداهة : أليست هى وحيدتى ، قرةَ عيني وبهجة

قلبي ؟ فإذا لم أفرح بها ، فبمن أفرح يا ترى ؟ .

— وهل رأيتَ ربَّيتَه ؟ .

— نعم . إنها لا تساوى في نظري قرشاً واحداً .

— كيف ؟

— إنها كالجرذ الأجرَب ، قصيرة نحيلة ، ذاتُ وجهٍ ينفرُ

من بشاعته الشيطان وهي مطبوعة على الشرِّ ، تتجسَّم
اللُّصُوصِيَّة في عينيها .

— وممن تزوجتُ ؟

— اختار لها والدُّها رجلاً من أعوانه الأصفياء ومن

يرضى أن يتزوجها غيرُ هذا الصَّنْف من عباد الله الضالِّين ؟ ! .



وتلاحقتُ زيارتي للضيعة ، وتوثقتُ بيني وبين « الشيخ حميدة »

روابطُ الألفة . فكثيراً ما دعوته لتناول الغداء معي ، وكنت

أُعنى بتقديم الشاي له لما أعلمه من غرامه الشديد به . وكثيراً

ما قضينا السهرةَ معاً إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأمامي

المدفأة وإبريقُ الشاي ، أستمع إلى « الشيخ حميدة » ، وهو

يروى لي مختلف النواذر والحكايات ، أو يُنشد « المواويل » الريفية

الجميلة ، أو ينطلق سارداً الى المُعْجِبِ المُطْرِبِ من الأمثال العامية .
وقد تشور به نُعْرَتُهُ العربية ، فإذا بلسانه يتعثر ببعض أبيات
يخفظها ملحونةً من الشعر العربيّ في لهجة مبتدلة مضحكة . . .
ولم يكن يتعرّض في أحاديثه لذكر وقائمه التي اشتهر بها ،
بل كان يتوقّى أن يشير إليها ، ولكنه طالما تغنى لى بأصله
العربيّ العريق — كما يدعى — وبمجد قبيلته القيسية .
وكان دائماً يقول وهو يقرع صدره بقبضة يده :

نحن من أشرف العرب ومن سرّاتها الأصائل !

وإذا انساق الحديثُ إلى أمه أو ربيبتة ، رقّ صوته ، وعلا البشرُ
وجهه ، وأفاض عليهما من تحنّانه ما شاء أن يُفيض . . . !



وتوالت الأيام . . . وحن ميعاد التحصيل ، فقصدت إلى
الضيعة أراقب العملَ بنفسى . وكنا في أواخر الربيع ، وقد
بدأ الفلاحون يَحْصِدُونَ القمح ، وأخذت الأجرانُ تعمُرُ
بميدانه الذهبية ذاتِ السنابلِ المثلثة . وجاءني الناظرُ
بمِثَّتِي جنيه في كيسين من النسيج . وكان الوقت ظهراً ،
فوضعت النقود في خزانة بحجرة نومي ، واستوثقتُ من

إغلاقها بالفتح ، وكنْتُ مُرْمِعاً الرحيلَ في اليوم التالي .
وبعد العشاء قضيتُ فترةً من الليل أُسامر الصحف والمجلات ،
ولو كان « الشيخ حميدة الباز » موجوداً في هذا اليوم بالضِّعة ،
لاستغنيتُ به عن مسامرة هذه الصحف المفعمّة بالأضاليل .
وقد سألت « مرجان » العبد عنه ، فقال وقد اهتزت شفتاه
المهدّلتان ، وتشنجت زاويتاه :
لقد ذهب إلى « كفر الطويل » ، في إحدى مغامراته . . .

ربنا ما يرجعه ! .

فقلتُ وأنا أتضحك :

ما هذا التخريف « يا مرجان » ؟ إن الرجلَ قد ودّع هذه
الشقاوات من زمن طويل !

— أقسم لك يا سيدي إنه لن يكفَّ عنها ، حتى بعد مماته .

— وهل له من عزم وقوة يمكِّنانه من القيام بمثل هذه

المغامرات الآن ؟ .

— إن هؤلاء الأشرار يستمدّون قوتهم من الشيطان . . .

وكان الوقتُ قد قاربَ منتصفَ الليل ، فقلتُ لـ « مرجان » وأنا على

أُهبة الذهاب إلى حجرة النوم :

وكيف حال ربيبتِه . أناعمةُ الببال هي مع زوجها ؟
- يقولون إنها مرتاحة جدًا . . . إنها في الضيعة الآن
تقضى أياماً مع أمه .
- أتقدمُ في ضيافته ، فيتركها وينصرف إلى مغامراته
كما تدعى ؟

- لا تنس يا سيدي أننا في موسم التحصيل . . . !
وصرفتُ « مرجان » ، وقصدتُ إلى حجرة نومي ، واتجهتُ إلى
الخزانة لأخذَ منها شيئاً ، ولشدَّ ما دهشتُ حين وجدتُ بابها
مفتوحاً ، فامتدتُ يدي على الفور إلى حيث وضعتُ صُرَّتِي النقود ،
فلم أجدَها ، فقلبتُ ما تحويه الخزانة رأساً على عقب باحثاً منقباً ،
فكان مجهوداً ضائعاً . فصرختُ أنادي « مرجان » ، وأعلمته بالخبر ،
فقال ، وقد غارت تجاعيدُه ، وازدادت شفتاه تهديلاً :

أمتاً كد أنت يا سيدي أنك وضعت الصُرَّتَيْن في الخزانة ؟
- وأين أضعهما يا غبي ، أ يوجد في الحجرة مكان آمن منه ؟
- أقسم لك يا سيدي إنني لم أفارق المنزل !
- إنك تحسن النوم تاركاً لعابك يتساقط على الأرض
دون أن تشعر . . . لا بد أنهم غافلوك ، وأنت نائم ، فسر قوا النقود . . .

وأخذ «مرجان» العبد يَلِطُ خَدَّه، وخرج مهرولاً يستدعى الناظر،
وجعلتُ أفكر مغالطاً نفسي ، مخادعاً يقيني : أأكون قد أخفيتُ
الصُّرْتَيْنِ في مكانٍ آخر ، وَقَلَّبْتُ فِرَاشَ السَّرِيرِ ، وبجثت تحت
المقاعد وفي الأركان ، ولم أُعْفِ أَى شَيْءٍ ، حتى خِزَانَةُ المَاءِ كُولَاتٍ ،
من تفتيشي ، ولكن ذهب كلُّ ذلك بلا جدوى .

وسمعتُ لَغَطًا شديدًا بالبَابِ ، فخرجتُ فوجدتُ الناظر بملابسِ
النوم وهو محاط بموظفَي الضيعة والخفراء ، فقلت :

لقد وقعت السرقة ، هذا أمر واضح . . . فيجب أن نعمل
على ضَبْطِ الجناة في أقرب وقت . أخشى أن يتمكنوا من الهرب .
وأصدر الناظر أمره بتطويق الضيعة ، فلا يُؤذَنُ لأحد في
أن يبرحَ مكانه . وذهبت وإياه إلى حجرة الجلوس للمشاورة ،
فقال لي :

سأجأ ، قبل إعلام المركز وفتح التحقيق الرسمي ، إلى
طريقة ريفية قديمة ، كثيراً ما نجحت في مثل هذه الحالة .

— ما هي ؟

— سَأَنْصَحُ لأهل الضيعة بأن يراجعوا أنفسهم ، ويعيدوا
الصرتين بالحسنَى ، مهدداً إياهم بأقصى العقوبات إذا أصرروا على

إخفاء النقود . أما طريقة ردّ المبلغ دون أن يُعرف السارق ،
فهي أن يخرج من كل بيت شخصٌ يحمل قفّة مملوءة بالتراب ،
يذهب بها منفرداً إلى مكان معلوم في الجرن ، فيُفرغها فيه ،
فالسارق يستطيع أن يدسّ الصرّتين في القفّة المملوءة بالتراب ،
ويذهب بها إلى الجرن فيُفرغ محتوياتها في ذلك المكان بعيداً
عن الأنظار ، فإذا تم العمل وأفرغ كل رجل قفّته ، ذهبنا
إلى كومة التراب فبحثنا فيها .

— حسناً . . . فلنبداً !

خرجنا إلى المساكن في ضوء المشاعل ، وكانت السماء صافيةً
تلتع نجومها كأنها عيونٌ حادة يقظة ، ويهبُّ النسيم الرطب على
الوجوه ، فيكسبُ النفسَ القلقةَ الحيرى شيئاً من الطمأنينة والرضا . . .
وكانت الضيعة قد استيقظت بأسرها ، وعلتُ هممةً غامضةً في
جوها . كل أسرة أمام دارها تتساءل في وجَل عن حادث
الليلة . . . النساء جالساتُ الترفُصاء مع أطفالهن ، ملفوفاتٌ في
ثيابهن السود ، يتراقص عليهن ضوء المشاعل فيُحيلهن من آدميات
إلى أشباح ؛ والرجال مُنتحون جانباً ، جماعاتٍ جماعات ،
يتهايمون في وجوم !

وخرجتُ أسرابُ الدجاج من الدور، تتلفتُ في مشيتها
المتزنة ، تتساءل متعجبة عن سر هذه اليقظة المبكرة ، فلما
تبين لها أن الأمر لا يعنىها انطلقت تُنقِقُ وتنبسُ الأرض
بمناقيرها ومخالبها . ورددت السطوح صباح بعض الديكة ،
وقد ظنت أن النوم غلبها فتأخرت عن تحية السحر . وظهرت
شراذم الكلاب الهزيلة ، بأذنانها المدلاة ، تنقل نظرها الخائف
البيدَ بيننا . . . !

ومرَّ الناظر على أهل الضيعة ، يبسط لهم ما اعتزم فعله ، وهو يهدد
مرةً ويتحايل أخرى ، حتى أتم جَوْلته . فماد إلينا ينتظر ،
واختفت النسوة ورجالهن في الدور ، وتولى شيخُ الخفراء
الإشرافَ على العمل ، فقصد إلى الباب الأول وقرعه . وبعد
حين خرجتُ منه امرأة مُسنَّة تحمل قُفتها على رأسها ، وذهبت
إلى الجرن منفردةً ، ثم عادت والقفة فارغةً في يدها . وانتقل
شيخ الخفراء إلى البيت الثاني ، فالثالث ، فالرابع . . . وهلم جرا .
حتى أتى إلى البيت الأخير ، فخرجت منه صبيةً ضئيلةُ الجسم ،
وعلى رأسها قُفتها ، واتجهت صوب الجرن كالأخريات ، ومال
على « مرجان » العبد قائلاً :

أتعرف هذه ؟

— كلا !

— إنها « زهر الورد » ربيبة « الشيخ حميدة » .

وعادتُ بعد قليل « زهر الورد » بالقفة فارغة .

وأعلمنا شيخ الخفراء بانتهاء « العملية » فقمنا إلى الجرن .

وأكبَّ الناظر على الكؤمة يَقْبِ عَالِيهَا سَافِلَهَا ، وَسَافِلَهَا

عَالِيهَا ، وَهُوَ يَنْثُرُ التَّرَابَ فَاحْصًا مَدَقَّتًا ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا . . .

فَاحْتَقَنَتْ عَيْنَاهُ ، وَاهْتَزَّ شَارِبُهُ الْغَلِيظُ الْمُعَفَّرُ ، وَرَدَّدَ فِي لَهْجَةِ قَاسِيَةٍ :

سَيَّرُونَ ، سَيَّرُونَ !

وصرخ يقول لـ « مرجان » العبد :

عَلَى بِالْفَلَقَةِ يَا وَلَدَ !

ورأيت « مرجان » يهرول نحو « الدوّار » ؛ لِيُعِدَّ « الْفَلَقَةَ »

لِلْمُتَهِمِينَ ، وَكَانَ كَمَا خَطَا بَضَعَ خَطَوَاتَ ، عَثَرَتْ قَدُمُهُ ، فَانْكَفَأَ

عَلَى وَجْهِهِ . . .

وعدنا إلى « الدوّار » وبدأ الناظر في « التحقيق »

فاتضح لنا أن السارقَ غلامَ أو نحو غلام ، رَأَوْا شَبْحَهُ يَرُوحُ وَيَجِيءُ

عَلَى سَطْحِ الدَّارِ الْمَلْاصِقَةِ لِلْبَيْتِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ السَّرْقَةُ . فَالرَّاجِحُ

أن هذا الغلام تسلق الجدار ، ودخل البيت من إحدى نوافذه ،
أو من باب الشرفة القبلي ، ثم خرج دون أن يلفت إليه
الأنظار . ولم يُعِرّه الخفراء اهتمامهم ، فقد ظنوه يطلب شيئاً من
الحطب الملقى على السطح ، وكثيراً ما يقع مثل ذلك .

فتتم الناظر :

إني أحصر شبهتي في « المنوفى عطا الله » إن له قامة
الغلمان وخفة حركتهم ، وفوق ذلك فماضيه غير مشرف . . .

ثم صرخ :

على ب « المنوفى عطا الله » . . . !

وصرخ شيخ الخفراء من بعده

ثم سمعتُ « مرجان » يصيح قَدَرًا ما تسمح له قوته وشجاعته في

هذا الوقت :

« المنوفى عطا الله » حالا . . . !

وانتقلت الجملة على السنة المنادين ، واحداً بعد واحد ، وهم
واقفون لم يتركوا أمكنتهم ، حتى وصلتُ إلى منزل المتهم ،
فاستقرت فيه !

. . . . وبعد قليل ظهر « المنوفى عطا الله » ، فإذا هو قزَمٌ

معروق نحيف، في هيئة الغلمان . يَنِمُّ وجهه الكاسفُ المضطرب
عن شيء من الدَّعة . تقدم منا وشفته ترددان في خلط وتسرع :

مظلوم والله يا جناب الناظر ! مظلوم !

فلتُ على الناظر ، وقلت هامساً :

إن مظهره لا يدل على شر !

— لا تَفْرُنْكَ الظواهرُ يا سيدي إن هؤلاء الفلاحين
يسترون خلف مظاهر الدَّعة والسكينة ، قلوباً ملؤها الخبث والمكر !

ثم التفتَ الناظر إلى « المنوفى عطا الله » وقال :

أعترف بالحقيقة وأحضر المبلغ ، وإلا شَوَيْتُ قَدَمَيْكَ شَيْئاً ! !

فأخذ الرجل يستمطف في ذِلة ، ويؤكد لنا براءته مؤيِّدةً

ببراهين واضحة ، فقال الناظر :

قلت لك اعترف بالحقيقة ، وأحضر المبلغ !

وسمعت « مَرَّجان » العبد يقول وهو يُعِدُّ « الفَلَقَّة » باهتمام :

قرّ يا ابن الناس بالحقيقة ، أحسن لك !

ولكن « المنوفى عطا الله » ظل يستعطف ، ويؤكد لنا براءته ،

فننِّد صبرُ الناظر ، وصاح :

اطرحوه أرضاً !

وهم الخفراء أن يمسكوا به ، فإذا بصوت من الباب يقول :
صبراً يا أولادى صبراً !

فالتفتنا نحو مصدر الصوت ، فإذا به « الشيخ حميدة الباز » مقبلٌ
علينا ، يتحامل على عكازته ، وسلم علينا وهو يقول :
لقد أتيتُ في الوقت المناسب .

ونظر إلى قائلاً :

قلبُ المؤمن دليله يا سيدنا البيه ، أقسم لك إن هاجساً كان
يهجس في صدري وأنا « بكر الطويل » ، يقول : قم إلى
« شندويل » ، إن أمراً قد وقع هناك . فلم أتوان ، وجئتُ على عجل ،
وما كادت قدمي تطأ الضيعة حتى علمتُ بالخبر

فقال له الناظر :

وماذا تنوى أن تفعله ؟ .

فابتسم « الشيخ حميدة » ابتسامةً سانحة ، ثم رأيتُه وقد صلبَ
عُودُه ، وتوهجت عيناه تَوْهَجَ المِشْعَلِ ، وقال في صوت عاصفٍ :

سيعود إليكم المبلغ . . .

— ولكن

— قلت لك سيعود إليكم المبلغ يا حضرة الناظر

أهذا هو صوتُ « الشيخ حميدة الباز » ، الفانى المتآكلُ النَّبَرَاتِ ؟
كاد يختلط على الأمر ، فأحسب أن المتكلمَ شخص آخر وغمر
« الدوارَ » صمتٌ شامل ، فسكن اللَّغَطُ ، وهدأت الجَلْبَةَ ، كأن
قوة سحرية غير منظورة قد سيطرت على المكان . وشخصتِ
الأبصارُ كُلُّهَا إلى « الشيخ حميدة » كأنها انجذبت إليه بمغناطيس ،
وقال الشيخ لـ « المنوفى عطا الله » :

أذهب إلى دارك !

نخرج الرجل مُذْعِنًا للأمر .

والتفتَ « الشيخ حميدة » للناظر ، وقال :

سأمر النسوة أن تخرج كلُّ واحدة بِقَفَّتِهَا إلى الجرن

سنعيد العملية مرة أخرى هلم !

وقصدنا ثانياً إلى الساكن ، ومر « الشيخ حميدة » على الدُّورِ ،

يعلن للسكان ما قرَّ العزمُ عليه ، ولم يستثن داره . وكان

يسير في خِفَّةٍ غريبة ونشاط عجيب ، وصوته يُزجرُ زمجرةً

الأسدِ الغَضُوبِ !

وبدأت النسوة تخرج عَوْدًا على بدء ، و « الشيخ حميدة »

واقف بباب الضيعة يرمقهنَّ بنظراته الفاحصة ، فكانها السهام

الحادة تَنْفُذُ إلى شَغَافِ قلوبهنَّ . وجاء دور « زهر الورد »
ربيبته ، فخرجت بقُفَّتِها ، ومرت أمامه ، وهو يرمقها
بنظراته كما فعل بالأخريات ، فإذا بالفتاة تترنَّح في مشيتها حتى
كادت تهوى على الأرض ، ولكنها جمعت شجاعتها ،
واستوت ثانياً ، وتابعت سيرها أعثرت قدمها في شيء
بالطريق ؟ أم . . . !

ورأيتُ وجه « الشيخ حميدة » على ضوء المشعل ، وقد تقلَّصت
عضلاته ، وتغير لونه ، ثم وجدته يضرب الأرض بمُكَازِته ،
وانطلق في تفكير عميق مضطرب .

وعادت « زهر الورد » بالقُفَّة فارغة ، وأشار لنا « الشيخ
حميدة » بالذهاب إلى الجُرن ، فذهبنا . وما كاد الناظر يدسَّ
يده في كومة التراب ، حتى صاح بملء فيه :

لقد ردّوا المبلغ ردّوا المبلغ

وأخرج الكيسين ، وعَجَلَ بهما إلى وسمعتُ « الشيخ
حميدة » يقول بصوت أجشٍّ ، وقد علا وجهه التجهّم :

ليسمح سيدي البيه بأن يعدّ تقوده !

وعددتُ النقودَ فوجدتها كاملة ، فهزرت يد « الشيخ حميدة » شاكرًا . . .

وامتلأ جو الضيعة بزغاريد النسوة ، وتعالَت أصواتُ الحمد والشكر لله . وعدتُ إلى البيت ، وكأني وسط مظاهرة صاحبة !

ولما خلوت بـ « مرجان » العبد ، قلت له :

ما رأيك فيما حصل ؟

فسح لعابه ، وأجاب وهو مقطَّبُ الجبين رزانةً وجِدًّا :

ألم أقل لك يا سيدي إنه على اتصال دائم بالشياطين ؟

وفي الصباح الباكر ، ولم أكن قد استوفيتُ قِسْطِي من

النوم ، سمعتُ قرعًا شديدًا على الباب ، فقامتُ فزعًا لِأَعْلَمَ ما

الخبر ؟ فقابلني الناظر بوجهٍ مكْفَهَرٍ ، وعينين زائغتين ،

وهو يقول :

لقد وقعتُ جريمةً فظيعةً في الضيعة !

— أيةُ جريمة ؟

— وَجِدْتُ « زهر الورد » مذبوحة ذبح الشاة !

— ربيبة « الشيخ حميدة » ؟ !

— هي بعينها !

— والقاتل ؟ ؟ !

— غير معروف ؛ فقد حاولنا أن نستجوب أم « الشيخ حميدة » فوجدنا لسانها معقوداً ، وقد أصيبتُ بمخبل .

— و « الشيخ حميدة » . أين هو ؟

— في « كفر الطويل » ، عاد إليه قبل الفجر ، وقد علمتُ الساعة أن سرقة جسيمة وقعت في الكفر المذكور ، وأن « الشيخ حميدة » متهم بها .

ونظرتُ إلى « مرجان » ، فإذا بشفتيه المهدلتين ترتجفان ، فيسمع لهما قرقرة كصوت الجمل وهو يرغى ويُرَبِّد .

وقصدتُ إلى التكا ، وجلست عليه ، وبدأتُ الشاهد المختلفة تتراءى أمام ناظري ، وكان أشدها وضوحاً وتكراراً صورة « زهر الورد » بقامتها القصيرة الهزيلة ، التي تشبه قامة

الفيلمان ، وهي خارجةٌ بِقَفَّتِهَا إلى الجرن ، وكيف ترنَّحت وكادت
تَهْوِي على الأرض أمام نظرات أيها المستكشِفَة . ثم ما بدا
على الرجل من تَجَهُمٍ وحيرة بعدئذ ، ثم صورتها وقد تَمَثَّلَتْهَا
ذبيحةٌ يَشْخَبُ دَمُهَا ، وهي مُسَجَّاةٌ أمام العجوز الخبولة . . . !

زَالِمْ

زه - نا

وقف « أبو المكارم افندى » أمام المائدة ، والبشر يعلو وجهه ، يعدد الألوان المثيرة للشهية التي يزدحم بها الحيوان .
وبغثة عَبَس ، والتفت إلى « دُنيا » خادِمة العجوز ،
قائلا :

وأين « السلطة » ؟ أنسيتِ أن تُحضريها ؟

فرفعتِ المرأةُ غِطاءَ سُلْطانيَّةِ على المائدة ، وقالت :

أأتسى أمَّ ما أمرتني به ؟

وتناول الرجلُ السُلْطانيَّةَ ، وجعل يَشْمها ويتفرَّس في

محتوياتها ، متغزِّلا ... ثم قال :

هي بعينها « سلطة بالكشوشة » التي كانت تُفضِّلها على كل

شيء ! . . . بارك الله فيكِ يا « دنيا » .

وأعاد السلطانيَّةَ إلى مكانها ، ثم نظَّر في ساعته ، وأرسل

تنهيدةً زلزلَ لها شاربُه الضخم المفتول ، وقال :

باقٍ نصفُ ساعةٍ لموعدي حضورها .

وأشعل لِفَاقَةً ، ثم التفت إلى « دنيا » وهو يَنْفُثُ الدخان قائلاً :
أخشى أن تتأخَّرَ « الفخدة التي بالبطاطس » . هل أُكِّدْتِ
عليهم أن يُحضروها في الميعاد ؟

— كلُّ التأكيد ياسيدى . كن مطمئناً .

وأخذ « أبوالمكارم افندى » يذرعُ أرضَ الغرفة بخطواته العصبية
جِيئةً وذهاباً ، وقد طافت خواطره بعوالم شتى . ثم اتجه إلى
خِزانة صغيرة ، فأخرج من أحد أدراجها دَفْتَرًا للصور ، ووقف ينظر
إلى ما يحتويه من أوضاع غير محتشمة . ومضى يُفرِّق في الضحك ،
وانهال على شاربه يَفْتِلُه بعنف ، حتى كاد يستأصل جذوره .
وبغته طوى الدَفْتَر ، وذهب إلى المرآة ، ومثل أمامها يُطيل
النظر في هندامه ، تَيَّاهاً بنفسه . وصاح بـ « دُنيا » فجاءتُ
مهرولة ؛ فقال لها ، وهو لم يغير وِقْفته تُجاه المرآة :

ألم تأت بعد « الفخدة التي بالبطاطس » ؟

— كلا ياسيدى . إنما

— إنما . . . إنما . . . هذه أمور لا يصح أن تحصل ،

خصوصاً في وليمة كهذه

وصمت قليلاً ، ثم تنحنح وقال بصوت هادئ :

أريد أن أعرف رأيك في أمرٍ يا «دنيا» . فهل تصدُقيني القول ؟

— طبعاً يا سيدي !

— إذا ما رأيك فيّ ؟ فيّ أنا ؟ ؟

— فيك أنت ؟ ! . . .

— أظهرتُ على عوارض الهرم ، أم ما زلتُ محتفظاً بشبابي ؟

— عين الحسود فيها عود يا سيدي . . . وحيّة رأسك

عندي إن الذي يراك لا يعتقد مطلقاً أنك جاوزت الثلاثين ! . . .

تبارك الخلاق فيما خلق !

فاهتزّ «أبوالمكارم» سروراً ، وأشرق وجهه ، وقال :

لقد بلغتُ الستين يا «دنيا» . . . أقول الستين ، ومن غيرمغالطة ،

لا كما يفعل الحرّيم . . . الستين ! . . . أسامعة ؟ . . . ومع ذلك

هل تُبصرين شعرةً واحدةً بيضاء في رأسي ؟

وخلع طربوشه ، وحنى رأسه أمام «دنيا» وأخذ يقول :

فتّشى . . . فتّشى . . . ولا شعرة واحدة !

ثم لبس طربوشه ، واستأنف قوله :

ولم أفقد سنّاً واحدة من أسناني . انظري . . .

وفتح شِدْقِيَه بِشِدَّة ، فظهرت أسنانه البِيضُ المنسَّقة تلمع
كأنها الصَّوَّانُ المصقول !

ثم اعتدل في وقفته ، وقال في تأكيد وغبطة ، وهو
يلعبُ حاجبيه :

هذا الطول والعرض ، وهذا الوجه الأحمر النَّضْرُ الذي لا أثر
فيه للتجعيد ، و... وهذا الدم الحارُّ الذي يَفْغَى في عروقي ،
فيجعلني أكثرَ حماساً في الحب من ابن عشرين . . .
ثم اقترب من « دنيا » وخَفَضَ صوته قائلاً :

اسألي عني حباي وعشيقاتي يا « دنيا » . . . اسألين يَروينَ
لكِ العَجَبَ !

ودفع يده في خَصْرِها مُلاطفاً ، فقفزت المرأة العجوز قفزةً تصاب
ومجون ، وهي تتخلع وتضحك . ووقف « أبو المكارم »
وقفَةً جَبَّارةً ، وقد عاد يفتلُ شاربه فتلاً عنيفاً ، وقال :

أنا برضه « أبو المكارم » على سِنِّ ورُمح !

ثم جلس على المُتَكِّ جِلْسة القائد المغوار يَسْتَجِمُّ قبل
المركة . وما أسرع أن هتف بـ « دنيا » ، وكانت قد تركتِ
الحجرة منذ برهة وجيزة ، فلما رآها صرخ فيها بغضب ، قائلاً :

أين « الفخدة التي بالبطاطس » ؟ ... أين هي ؟

— ستأتي بعد قليل يا سيدي .

— بعد قليل يا سيدي ! ... منذ ساعة وأنا لا أسمع منك إلا

هذه الجملة ... أريد « الفخدة » في الحال ... أسمع في الحال !

أما عجيبة يا عالم ... لأجل إنضاج « نخده » واحدة بـ « البطاطس »

نتنظر يوما كاملا ؟ أخرجني وأتني بـ « الفخدة » في الحال .

وفي هذه اللحظة سُمع الباب يُدقّ ، وصبيّ القرآن ينادي ،

لتأخذ منه « دنيا » صينيّة « البطاطس » ... فتتنفّست المرأة

الصعداء ، وتمتت :

يا ما انت كريم يا رب !

وخرجت ، ثم ما عتت أن عادت تحمل الصينيّة ، يفوح

منها عبيرها الذكيّ . فما إن رآها « أبو المكارم » حتى استنار

وجهه ، وانفسحت طاقتا أنفه ... وقام إلى المائدة ، حيث وضعت

« دنيا » الصينيّة ، وكشف عنها وهو يتلّع ريقه ، ويقول :

يا سلام على دي نخده . . . زبده خالص !

ثم أعاد الغطاء ، والتفت إلى « دنيا » وقال :

على فكره . . . أين « الوزة التي بالملوخيّة » ؟

— على الكانون يا سيدى .

— والحمام المشوى ؟

— تحت الطلب .

— والكنافة ؟

— جاهزة ، مع القشطة .

ولمت عينا « أبى المكارم » وأخذ يفرّك يديه مغتبطاً ،
وسمع « دنيا » تقول :

هذه وليمة تليق بالملوك !

— يا سلام ! وهل « حُكّام » أقلُّ من الملوك ؟ إنها

« حُكّام » يا وليّة « حُكّام » . . . !

ثم لبث يُغنم ، ووجهه يتألق بالذكرى والأحلام :

حُكّام ! . . . أين أيامك يا حُكّام ؟

وجعل يروح ويجىء فى الغرفة ، وهو يفكر فيها وفى أيامها

الخوالى . . .

لقد تعرّف بها وهو فى أوج حياته ، فى الأربعين من

عمره . . . وكانت حياته فى تلك الحِقبة ضجّة . . . ضجّة موزّعة بين

وزارة الأشغال صباحاً ، والقهوة عصراً ، ومجالى الأُنس ليلاً .

وفي بعض هذه المجالى عَرَفَهَا ، إذ كانت مُعْنِيَةَ مشهورة ،
و « أُسْطَى » من العوالم فنتت أهلَ عصرها ، فأحبَّ فيها
حلاوةَ صوتها ، وسحرَ أنوثها ؛ وأحبتُ فيه روعةَ رجولته ،
ووفرةَ قوته ...

وتزوَّجا . . . وقضَيَا معاً عشرةَ أعوام ، قضياها في حبِّ
عنيف ، وكرهٍ عنيف . في عِنَاقٍ وتقبيل ، وعناءٍ وتنكيد .
وأخيراً تمَّ الانفصالُ لِأَوْهَى سببٍ . . . ومنذ ذلك الوقت لم يرها !
. . . ورفع « أبو الكارم » رأسه ، ووقف أمام « دنيا »
وقال في لهجة الحالم :

عشرة أعوام لم أرها ، عشرة أعوام لم أسأل عنها ، ولم أعرف
من أخبارها شيئاً ، فما الذى دفعنى إلى أن أدعوها اليوم ؟ . . .
لقد تراءت لى فى غفوة من غفواتى وهى تبسّم وتشير إلىّ ، ثم
سمعتها تضحك . أجل يا « دنيا » ، رنت ضحكها فى أذنى ، تلك
الضحكةُ المملوءة بمباهج الحياة ومفاتيحها . . . فأحسستُ قلبى
يتضرمُّ على حين فجأة ، وكأنَّ قنبلة قد انفجرت فيه !
وتوقّف عن الكلام ، ومدَّ يده إلى زجاجة نبيذٍ على
المائدة ، فشرب منها بضع جرعات ، ثم قال :

لقد رأيتها يا « دنيا » حين أرسلتكِ لدعوتها ، فكيف
هي ؟ أما زالت كعهدي بها دائماً ؟
— كالبدن وحياتك عندي !

— حدثيني يا « دنيا » عنها ، عددي لي صفاتها ، اذكرني
لي ما قالت لك حين ذكرت اسمي لها ... كيف تلقت دعوتي
إياها ؟ وكيف أمطرتكِ بالأسئلة عني وعن حبي ؟ ... قولي
يا « دنيا » وأطيلي !

وطرقتُ سمعه في هذه اللحظة جلبة ، كأنها موكب
زفة قادمة ... فأسرع « أبو المكارم » يستقبلها ... إنها هي ، إنه
يسمع ضحكها ذات النغم الرحيب ، تسبقها لتعلن قدومها ، وتفسح
لها الطريق ...

ودخلت « حُكَّام » ترنّ بأساورها وخلاخيلها . قوام مكتنز
باللحم والشحم ، ووجه يلمع بحسن يوسف ، ومشية متبخثرة تهتز
أرض الغرفة تحت خطاها المتسقة الثقيلة !

وشعُر « أبو المكارم » بقلبه يتفتّح تفتّح المعدة الخاوية إذا
هبت عليها أنفاس الشواء ، وأحسن دم الشباب يتدفق في عروقه .
فسار إليها ، وكل شيء فيه يضحك ، يستقبلها كما استقبلها من

قبلُ يومَ عُرْسِهَا . رآها أمامه كما كانت في ذلك اليوم تتلأأُ
كالماسة تحت الشعاع !

وسلمَ عليها سلام مشتاق ، وقال ويده في يدها :

يا سلام على الأيدى اللئى زى الملبن دى !

وردت تحيته بضحكات فيها نُعومةٌ وطرأوة ، ثم دارت

بعينها فى الحجره ، وعلى المائدة ، وقالت :

حقاً لم تنس شيئاً . . . الفلّ يغطى القلّ ، وسلطة

الشكشوكه والمخلل . . .

فقاطعها « أبو المكارم » وهو يرفع أمامها غطاء الصنينة ، وقال :

والفخده ام بطاطس ؟

— الله . . . !

ولامس فخذها فى جُرأة ، وهو يقول وعيناها تلمعان :

نغده مستوية أوى !

فردت يده ، وهى تضحكُ ، مترائخية . ثم قالت فى صوتٍ

لين كأنها تغنى :

كل شىء وفق المرام !

وجلستُ معه على المتكأ ، وأحاط كل منهما الآخر بذراعه ،

وصمتا برهة . . . ثم قال « أبو المكارم » :

تُرَى هل أنتِ مسرورة مع غيري يا « حُكَّام » ؟

— كما أنتِ مسرور مع غيري !

— من أدراكِ أني مسرور ؟

— عشر سنين لم تسأل عني فيها مرةً واحدة . . .

— يعلم الله كيف كنتُ أفكرُ فيك !

— أتم الرجال لا تفكرون في أحد . . .

— والسَّتَات . . . ؟

— يا حسرة علينا . . . نحن لنا غير قلب ؟

— أتذكرين عهدنا الذي مضى ؟

— أيام لا تُعوَّض . . .

— يا ليت الذي جرى ما كان !

— كل شيء قسمة ونصيب . . .

ورفع « أبوالمكارم » بصره إلى المائدة ، فقابلت « الفخده »

عينيه وهي تلمع تحت السمن والمرق . فتَلَمَّظَ بريقه ، ومدَّ

يده إلى ذراع « حُكَّام » ، فتَحَسَّسَهَا بِرِيقِ ، وهو يقول :

يا سلام على الموز الأصلي !

ولم تحرك « حُكَّام » ساكناً هذه المرة ، وظهر عليها
التطامن والاستسلام ، فاسترست في ضجعتها ، وأشعلت لفاقة ،
وأخذت تنفث دخانها في وجهه وهي تضحك . ثم سمعته يقول :

كيف قضيتِ السنين العشر يا « حُكَّام » ؟

— قضيتها كما تقضى كل امرأة مثلي حياتها ... ليالى
حظ أحبها بالغناء حتى الفجر . وأيام أقطعها نوماً . ورجال
أبدلهم كما أبدل جواربي ...

— حاذري فيما تقولين ! ... أى رجال أردتِ ؟ ...
وكيف لك أن تجرئي على التفوه بمثل هذا الكلام أمامي ؟
فأطلقت « حُكَّام » ضحكة عالية ، ومالت عليه بكفها تقول :

والنبي تتلهي !

فضمها الرجل ضمة قوية ، ومد رأسه ليقبلها ، فوجدها
تدنى شفيتها منه ، وقد أسبلت جفניה ... وحدق بنظره
فيها ، ثم مد يده إلى المائدة ، وأخذ قنينة النبيذ ، وكرع
منها طويلاً ، ثم ناولها إيَّاه . وقام على الفور فاقتطع من
« الفخذة » قطعة ضخمة دسها بين شِدْقَيْهِ ، ثم اقتطع أخرى
قدمها إليها ... كان يفعل ذلك باهتمام شديد ، وعيناه

لا تفارقان الصَّحَافَ ، على حين أن « حُكَّام » كانت تنظر إليه
دَهْشَةً تُسَائِلُ نَفْسَهَا : لماذا لم ينل منها القُبْلَةَ التي همَّ بها ؟
وقاما إلى المائدة ، وقد أحس « أبو المكارم » شيئاً خفياً
يُقلِّقه ، شيئاً لا يعرف كُنْهَهُ . . . ولكنه لم يُؤَلِّهِ اهْتِماماً ،
بل جلس أمام الطعام يَتَفَرَّجُ في أطيب ألوانه ، ويصف لـ « حُكَّام »
محاسنه ، وكيفية صنعه . واندفع يضحك بلا سبب ، مُحاولاً أن
يثير البهجة في جو الحجرة . فاندفعت « حُكَّام » تضحك
أيضاً ، وهي لا تدري لماذا تفعل !

وصاح « أبو المكارم » بـ « دنيا » لتُحضِرَ له بقية
الطعام ، وأخذ يُؤَنِّبُهَا بأقبح الألفاظ . . . وتجاوبت الحجرة
بالضجة التي أثارها الرجل ، ثم لم تلبث أن عمَّها السكون !
وتنهَّدت « حُكَّام » ، فنظر إليها « أبو المكارم » نظرة
مستفسر ، وقال :

ما الذي يحزنك ؟

— تذكرتُ اليوم الأخيرَ الذي أمضيتهُ في هذا المنزل !

— أمرك عجيب يا « حُكَّام » ... وهل هذا وقت التفكير في

مثل هذه الأمور ؟ فكِّرْ في شيءٍ آخر ... مثلاً ... يومَ

ذقتِ مني « العلقة » الحامية في هذا الركن . أمتذكرة أنتِ ؟

ومضى يقهقه في صوت كريبه ، فقالت له :

ويومَ شَجَبْتُ رَأْسَكَ ، إِذْ رَمَيْتُكَ بِالْقَلَّةِ ... أمتذكرة أنتِ ؟

وراحت تقهقه أيضا ، ولكن في شيء من التكلف !

وأخذا يتراشقان بالتككات ، ويتداولان النوادر والفكاهات ،

وهما يتمايلان ويتقارضان ...

وأخيراً جاءت « دنيا » بالكُنافة ، فهلَّلا لها وكبَّرا .

وأقسم « أبو المكارم » لصاحبتة أن يُطعمها منها بيده ، فلا

تمسَّها أناملها . فجعل يأخذ من الكُنافة مِلءَ كَفِّه ، ويحشو

به فمها بين الضحك والضحيج ... !

وبغثة صرخ متألماً ، وقال :

أعوذ بالله ! ... ما أقبحَ هذه المعابثة ، لقد جرَّحتِ إصبعي .

... . وانتهى الطعام فقاما ثانيةً إلى التكا متثاقلين ،

وانظرحا عليه ، تتردد أنفاسُهما في صعوبة وعُسر .

وحضرتِ القهوة ، وأخرج « أبو المكارم » من جيبه

« حُقَّ العنبر » وأخذ منه قدرًا على طَرَفِ عود كبريت :

وجعل يُذيبُه في القهوة ، ويقول :

ما أنفَسَ هذا العنبر يا « حُكَّام » ، عنبر أشهبى أصلى من
أعلى صنف ، منقٍ للدم ، ومُقَوِّ للعضلات . . . إنه لا يفارقتى
أبدًا ، وأنا مَدِينٌ له بتجدُّدِ شبابي . . .

وكشف عن ساعده ، وقال وهو يلوح أمامها به :
انظري ، ذراعٌ مثل الحديد ، ويد كأنها يد السبع !
فرتتُ لِـ « حُكَّام » ضِحْكَةً استهزاءً ، انتفض لها
« أبو المكارم » وقال :

أَمَا تُصَدِّقِينِي ؟

ولستُ كَفَّهُ بأصابعها ، وقالت :

يدٌ ناعمة ، كأنها يدُ طفل !

فاحمرَّ وجهُ الرجل ، وحلَّق في وجهها ، وهو يَفْتِلُ شاربه .

وقال :

أتهزئين بي ؟ طيب . . . سأريك !

وضغط ذراعها بشدَّة ، فصرخت المرأة تستغيث . وأراد أن
يمدَّ يده إلى صدرها ، ولكنه لم يفعل ، وأحسَّ يده تهتدل إلى
جانبه .

وصمَّتا برهة ، واشتدتُ عليهما وطأةُ الخمول ، ثم عادا إلى

الكلام ينتزعه انتزاعاً . . . أسئلة مختصرة ، وردود قصيرة ؛
ثم استجداء للهواء ، مصحوب بتهدات .
وأخيراً مالا برأسيهما ، فأغفياً ! . . .

واستيقظ « أبوالمكارم افندى » فإذا بضيق يغزو صدره ،
فهض عَجَلًا ينظر في ساعته . ثم تلفت حوله ، فإذا بالشمس
قد مالت للغروب ، وبدأت غياهب المساء تزحف على الحى .
ووقف يتأمل « حُكَّام » وهى فى نَعْسِهَا ، وقد بسطت
ذراعيها ، ومدت ساقها ، فمات المتكأ ، وجعلت تنفسُ مجهوداً
كأنها فيلٌ يُحْتَضَرُ !

على أطراف أصابعه ، ونزل يريد الطريق ، فلقيته
« دنيا » بالباب ، فابتدرها بقوله :

أصاحبة أنتِ يا « دنيا » ؟ . . . « حُكَّام » نائمة ، ويجب ألا تُقْلِقَهَا . . .
لولا أن « بيومى » افندى ينتظرني الآن لأمرٍ مهمٍّ لما تركتها . . .
قولى لها : الأيام بيننا ، والقلوبُ عند بعضها !
وتركها وخرج ، وأشعل لفافة . . . وأخذ يفكر : أصحیح أنه
على موعدٍ مهمٍّ مع « بيومى افندى » ؟

وابتسم ابتسامة عريضة ، وأرسل تنفُّسَةً ارتياحاً !

فلا تموتوا
ع

غرام

كنتُ في العشرين من عمري يومَ عرّفتُ « رُوحيةَ » الراقصةَ وأنا وقتئذٍ موظّفٌ في ديوان الحريّة ، التحقتُ به مباشرةً بعد نيلِ شهادةِ الدراسة الابتدائية .

عرّفتها في قهوةِ رقصٍ شهيرة ، وكانت فتنةً أهل زمانها ، تزدهم القهوةُ بأناسٍ من مختلفِ الطبقاتِ كلِّ مساءٍ من أجلها . ولم تكن « رُوحيةَ » بالراقصةِ العاديةِ تُعرضُ أمامَ الجمهور ما يُعرضه غيرُها ، لكنها كانت متفنّنةً تبتكر الرقصات الغريبة ، وتُنوّعها دائماً ، فتسلبُ عقولَ الناس . وكان لها بجانب ذلك ذوقٌ رائعٌ في اختيار الملابس ، ولا سيما ملابسُ الرقص ، فهي تظهر كل ليلةٍ بـ « فستان » جديد ، بل إنها لتغيّرُ ملابسها في الليلة الواحدة غيرَ مرة

كان الذهبُ يتناثر تحت أقدامها من كل صوّب ؛ فلقد كانت كثيرةَ العشاق . . . ولكن ليس لها إلا خليل واحد ، صُعلوك من صغار المغنّين ، أصبح له بفضلها مكانةٌ ممتازة في القهوة ، وكلمة مسموعةٌ فيها . ومن عجبٍ أنه كثيراً ما يتعاطم

عليها ويهينها ، ويطلب النقودَ منها في قِحةٍ وجرأةٍ ، فلا تلبثُ
أن تُلبِّيَ رغبته صاغرة خاضعة !

وكان من سوء طالعي أني تعلّمتُ بها ، وافتنتُ بحبها ؛
فكنتُ أذهب إلى القهوة كلَّ مساءً ، وأمكثُ فيها حتى
ساعة الإغلاق . ثم آخذُ طريقي إلى الحارة المظلمة — حيث
بابُ القهوة الخلفي — وأقف بجواره منتظرا خروجها . وكنتُ
ألقَى في ذلك ألوانا من العذاب ، ولا أجد السبيلَ إلى بدء
التعارُف بيني وبينها وأين يقع ما أمليكَ من تلك التروّات التي
كانت تنهار وتختفي تحت قدميها ، دون أن تُنيلَ أصحابها حُظوةً
أو تُمهّدَ لهم الفوزَ بمأربٍ ؟ !

وحدّث ما لم يكن في الحُسبان أن يحدث . . . كنت ذات
ليلة بمكاني في الحارة المظلمة ، بجوار الباب الخلفي للقهوة ، أترقبُ
خروجها كعادتي ، وبعد طول انتظار رأيتها تجيء بمفردها ،
وتلَفَّتْ حولها ، فوقع نظرها عليّ ، فنادتني في لهجة السيد
الآمر قائلةً :

اذهب يا « جدع » ، واطلب لي عربية حالاً .

فانطلقتُ على الفور أُعدو ، وجئتُ بالعربة لها ، وطفعتُ
على شعور زهو وانتصار لم أحسّه في حياتي من قبل .
وركبت العربة دون أن تُعنى بي ، فوقفتُ في مكاني برهة
كالمصوق . وبفتنةٍ شعرتُ بقوة تدفعني إلى اللحاق بالعربة ،
فهرولتُ وراءها حتى أدركتها ، وتعلقتُ بظهرها كما يفعل
الأولاد العابثون !

وسمعتُ بعضَ السائبةِ يصيح : « ورا يا أسطى ... » فإذا بسوط
السائق يُلسعُ كتفي غيرَ مرة . ولكنني لَزِمْتُ مكاني حتى
بلغتُ بنا العربة مستقرّها . فلما شهدتُ « روحية » تفادرها
بادرتُ بالاختفاء في مكان مظلم قبالة منزلها . وكنت أسمع
وَقَع قدميها وهي تصعد الدَّرَج ... وهي تفتح الباب ... وهي
تحدث إلى خادمتها ...

كنتُ أسمع هذا كله بوضوح غريب كأنني معها ، أتتبعُ
خطواتها أينما تنقَّلت . وتواردت عليّ أخيلة شتى : رأيتُ لي
نفسى أن أقحم دارها ، فاخطبها وأنهال عليها لثما واحتضاناً ،
وأظل أعدو بها حتى أبلغ منزلي غير آبهٍ بشيء في الوجود ...
ولبثتُ مكاني وقتاً غير قصير وقد ازدحمتُ في رأسى الهواجس ،

فَتَصَوَّرَ لِي أَنِّي وَإِيَّاهَا فِي مَخْدَعٍ وَقَدْ تَمَدَّدْتُ عَلَى الْفِرَاشِ ،
وَأَخَذْتُ مَكَانِي تَحْتَ قَدَمَيْهَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَاسْتَسَلْتُ لِنَوْمٍ هَنِيءٍ ؛
تُعْمَهُ الْأَحْلَامُ وَشَعَرْتُ كَأَنَّهَا تَهَيَّزُنِي ، فَفَتَحْتُ عَيْنِي
مُسْتَبْشِرًا بِطَلْعِهَا الْجَمِيلَةِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا أَنْ أَرَى أَحَدَ الْعَامِلِ
يُوقِظُنِي ، وَيُنَبِّئُنِي إِلَى وَجُودِي الْغَرِيبِ فِي هَذَا الْمَكَانِ .
فَهَضْتُ ضَيْقَ الصَّدْرِ شَدِيدَ التَّحَسُّرِ ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ
تَبْسُطُ عَلَى الْوُجُودِ أَشْعَتَهَا اللَّيِّنَةَ .

وَفِي الْمَسَاءِ قَصِدْتُ قَهْوَةَ الرِّقْصِ كِعَادَتِي ، وَعِنْدَ انْقِضَاءِ السَّهْرَةِ
ذَهَبْتُ إِلَى الْبَابِ الْخَلْفِيِّ فِي الْحَارَةِ الْمُظْلَمَةِ أَنْتَظِرُ خُرُوجَهَا . وَمَا
إِنِ انْفَتَحَ الْبَابُ ، وَظَهَرَ شَبْحُ « رُوحِيَّةِ » الْأَهْيَافِ ، حَتَّى خَطَوْتُ
نَحْوَهَا بَضْعَ خَطَوَاتٍ . وَوَاجَهْتُهَا فَعَرَفْتَنِي ، وَابْتَسَمَتْ لِي ، ثُمَّ
طَلَبَتْ مِنِّي كَالْمَرَّةِ السَّابِقَةِ أَنْ أُحْضِرَ لَهَا عَرَبِيَّةً ، فَضَيْتُ مَسِيرِعًا
وَجِئْتُهَا بِهَا . وَمَا رَكِبْتُ صَعِدْتُ إِلَى جِوَارِ السَّائِقِ فَجَلَسْتُ ،
وَحَسِبَنِي الرَّجُلُ مِنْ أَتْبَاعِهَا فَلَمْ يَعْتَرِضْ وَلَا تَسَلَّ عَمَّا شَمَلَنِي
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ سُرُورٍ وَاعْتِبَاطٍ .

فَلَمَّا وَصَلْنَا ، وَثَبْتُ نَحْوَ سُلَّمِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَسْنَدْتُ مَوْلَاتِي حَتَّى
الْبَابِ ، وَلَكِنْ « مَوْلَاتِي » لَمْ تَبْدَأْ كَثْرَاتًا بِي ، وَمَضَتْ فِي

المنزل لا تلوى على شيء . وتَسَمَّرْتُ في موقفي ، والحَيْرَةُ
تَعَبْتُ بي . . . هل أَتَبِعُهَا ؟ . . . هل أنتظر لعلها تُرسل في
طلبي ؟ . . .

وبينما أنا في غمرتي إذ تنبهتُ لوجود شخص على مقربة
مني ، فتبينته فإذا به « الشربيني » المغنى الصُّلوك ، رفيق
« روحية » . . . وكان ينظر إلى شزراً ، فاضطربتُ في موقفي ،
ثم غادرتُ المكانَ أُغنم !

وقهقه الرجل ضاحكا ، وشيَّعني ببصقة وقِحة ، ثم دخل
المنزل وردَّ الباب بعنف ؛ فأردت الرجوع لأضرب هذا الوغد ،
ولكنَّ قدميَّ كانتا مُجَدَّتَيْنِ في السير إلى منزلي . . .

وفي الليلة التالية جريت على عادتي في الوقوف بباب القهوة
الخلقي ؛ ولحمتها خارجة . ولم تكن منفردةً هذه المرة ، فقد كان
معها « الوغد » ، ورأيتُه يَمُجِدِّجني بنظرة احتقار ، شفعاها
بضحكةٍ عالية مستهترة ، وشاركته « روحية » في الضحك ،
ومرًا بجانبني ، وركبا عربةً على رأس الحارة .

ومرتُ ليلتان لم يجدَّ فيهما شيء . . . وحدث في الليلة الثالثة ،
وكنتُ في القهوة ، أن أعارتني « روحية » لفتةً منها ، فقد

نظرتُ إلىَّ مبتسمة ، ونادتني بلهجتها الأعرّة :

تعال يا جدع انت !

فهرولتُ نحوها ، والأمل يفسحُ لي ، وقلتُ :

— خِدْمَة يا ست ؟

فأجابتنى وهى ترسل دخانَ لِفَاقِهَا غيرَ مُبَالِيَة :

أين الحاجَّ « سفيطة » ؟

فرُحْتُ على التَوَّ أناديه .

ذلك كلُّ ما كان في تلك الليلة بينها وبينى !

.....

ونبتتُ بينى وبين « روحية » على توالى الأيام علاقة عابرة ؛
إذ كثيراً ما كلفتنى أعمالاً هيّنة ، كمناداةِ الحاجَّ « سفيطة » ،
أو إحضار كُوبٍ من ماء ، أو نحوه . ولكنها فيما دون ذلك
لم تكن ترحمُنِي من احتقارها . وكل ما كانت تُنيلُنِي إياه من
عطف ، بضعُ ابتساماتٍ شحيحة تمتنُّ بها علىَّ ، كما يمتنُّ
البخيل بدرّيهماَتِهِ على سائليه . وكان لهذه الابتسامات تأثير
عجيب في نفسى ، فكأننى أبعث من جديد . ولكن سرعانَ
ما تعود إلى إزرائها بي ، وصَلَفِهَا علىَّ ، فيعود إلى يأسى

وحسرتي . وكانت تنادينني دائماً : « يا جَدع » ولم تهتمّ مرةً أن
تسألني : ما اسمي . وكل ما عرَفْتَهُ عني أنني من جلساء قهوتها ،
ومن صرَعِي جالها المتدَلِّهينَ بِجَبِّها ! ...

وأُمتعتُ مرةً في إذلالِي ، ففُرتُ في وجهها قائلاً :
ماذا فعلتُ بكِ لِتُتَمَعِنِي في إهانتِي هكذا؟ أنا لستُ خادماً
عندك ، أنا موظفٌ في الحربية !

فرمتني بِضِحْكَةٍ عاليةٍ ، وقالت :

موظفٌ في الحربية ... أهلاً وسهلاً !

ثم مدتُ قدميها في وجهي ، وقالت :

انفضُ الترابَ عن خدائي يا حضرة الموظف في الحربية ... !
وكان في وُسعِي أن أتناول كُرْسِيًّا ، فأحطَّته على رأسها ...
ولكنني وجدتُ نفسي أتقدِّمُ نحوها ، أتكلِّفُ الابتسامَ ، وقد
بدأتُ أنفضُ خدائها بِمَنديلِ وجهي ! !

أما صلتِي بـ « الشريبي » فأعجب من العجب ... كلُّ منا
يتجاهل صاحبه ، ولا يحسِبُ له من وجود !

كان الرجل يقف في مكانه بجوار المسرح ، معتمداً على الحاجز ،
بقامته المديدة ، وجسمه العريض ، وقد أمال طربوشه ، وطفق

يَفْتَلُّ شَارِبَهُ الْمُرْهَفَ ، يرمى القاعة بابتسامة التعاطف ، ويرمئها
بنظرة الاستخفاف . . . فإن وقع بصره على ، اختلجت شفتاه
اختلاجةً ازدراء ، فأصوب إليه عيني ، ثم لا ألبث أن أحول
عنه وجهي !

كنتُ أحترق على مهل ، محتلاً شتى ألوان المذلة والهوان ،
دون أن أحظى منها بشيء . وبأن لي أنه ليس ثمة إلا سبيلٌ
واحد يُدينني منها . . . المال ! لا شيء غير المال . . . ولكن
من أين لي هذا المال الذي أستطيع به منافسة محبيها في
اجتذابها إليّ ؟ !

وكنتُ أعرف أن نصيبَ أختي من ميراث والدتنا خاتمٌ من
الماس ، يُقدَّر بعشرين جنيهاً ، وهو ما يزال في حوزتها . فذهبتُ
إليها ، وقصصتُ عليها حكايةً ملفقة تتضمن تورطى في ضمان
صديق ، واضطرارى إلى دفع هذا الضمان ، وأنى إذا لم أدفعه في
حينه تعرّضتُ لحكم قضائيّ ، فيه بلا ريب قضاء على مستقبلى .
ورجوتُ منها أن تعطيني الخاتم لأرهنه ريثما أجد السبيل لتدبير
المال ، ثم أعيده إليها سالماً . . . وكانت أختي أسنّ منى ، وقد
نشأتُ في كنفها فأحبّبتني . فلم تَضَنَّ بالخاتم على ، فذهبتُ به

إلى السوق وبعته ، وعمرتُ جيبى بمبلغ لم أكن أحلم أنه يسلسُ
لى يوماً من الأيام !

وفى المساء قصدت قهوة الرقص ، دخلتها بخطوات سريعة
غير متزنة ، تلتصق فى رأسى شتى الخواطر ؛ وجلست فى مكاني
الذى اعتدت أن أجلسَ فيه ، حتى انتهى القسم الأول من
البرنامج ، ومر بجانبى « سفينة » المطيب ، فاستوقفته ،
وقلت له :

تعال ، أريدك فى مسألة .

فأجابنى ، وهو يتابع سيره :

اتركنى ... أنا مشغول !

فتمت إليه ، ودسست فى يده مبلغاً من المال ، وقلت له هامساً :

لك أضعافُ أضعافه إذا هيأت لى خلوةً بروحية

هذا المساء !

فنظر إلى الرجل فى دهشة ، فأخرجتُ محفظتى أمامه ، وأخذتُ

أقلب ما بها من أوراق مالية ، ففغرفاه ، فلاحقته بقولى :

سأنعشك بمبلغ كبير إذا هيأت لى الليلة خلوةً بها !

— انتظرنى حيث أنت . . . وسأعود إليك .

فعدتُ إلى مقعدى ، أحاول الجلوس ، ولكننى لم أستطع
أن أستقر ، كانت أعصابى شديدة اليقظة ، فضيت أروح وأجىء
مُقسَم البال . . . ولم تطل غيبةُ الحاج « سفيطة » فعاد إلى
يَهْمِس في أذنى :

إنها تنتظرك وحدها فى الحجرة الثانية على اليمين .

.....

كنتُ أعرف هذه الحجرة ، وأعلم أنها المكان الذى
تختلج فيه هى ورفاقها ، وكم من مرة جلستُ غير بعيدٍ أرقب
بابها الصغير الأخضر ، وأنا مستسلم لأحلام مُضنية . . . وكان
يُخَيِّلُ إلى أنها حجرة متسعة نخمة ، مؤثثة بالثمين من الرياش ،
يضئها نور أحمرٍ موقظٍ للعواطف !

سرت وأنا شامخ الأنف ، أتلفت حولي ، لعلى ألقى « الشربيتى »
فأطفي غليلي بنظرة تشفٍ أجدجه بها ، ولكننى لسوء حظى
لم أره !

. . . وفتحتُ باب الحجرة فى تمهل ، ودخلتُ ، فإذا
بـ « روحية » جالسة على مقعدها تتلأأ كالثرىا فى لبوس

(١٤)

الرقص البديع الذي يكشف عن محاسن جسمها . . . وكانت
تبتسم والمطر يفوح منها ، كأنها نُحْبَةٌ من الورد النضير !
وشعرتُ بتخاذلٍ وتهيبٍ ، ورأيتني لا أكاد أقوى على
الوقوف ، فاستندتُ إلى الحائط ، وأخرجتُ منديلي أمسح به
وجهي : ~~الضعف~~ تقول :

تعال ، تفضل اجلس !

فاستترتُ بعضَ شجاعتي ، وسرتُ نحوها بطيءَ الخطأ ،
فأشارتُ إلى مقعدٍ بجوارها ، وقالت وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة :
تفضل ، تفضل . . . الدنيا حر ، أليس كذلك ؟
فأجبتُ وأنا أحاول الابتسام :
صحيح حرّ ، حرّ جدًّا .

— هل لك في كأس من الشيبانیا المُثلَّجة ؟
ولاحظتُ على مقربة منا مِنْضَدَةً صغيرة عليها زجاجة
« الشيبانیا » وكأسان . . . وملائهُمَا ، وناولتني كأسى ، فشربتها
دَفْعَةً واحدةً لأهزيم بها ضعفي ، وشعرتُ كأن ناراً قد شَبَّتْ
في جوفي . ولكنني تماسكت . وسمعت « روحية » تقول :
شيبانیا من النوع المتوسط ، لا بأس بها على كل حال !

وتصاعد اللهب إلى وجهي ، ورحتُ أفكّرُ فيما يجب أن أقوله لها ، كيف أبدأُ حديث « المناوشات » . . . يا لله !! شدّ ما هو صعبٌ على حديث العهد بالحب أن يستهلّ المغازلة مع غانية أصيلة كـ « روحية » ، كلُّ أيامها ولياليها غرام متواصل . . . وملائني السُّخْط على نفسي . . . أأتقي لا أنبس بكلمة واحدة ؟ إلى متى هذا الصمتُ المُزريُّ ؟ حتى وجهي لم أرفعه إليها ! أفاضلٌ مكثفياً بالنظر إلى قدميها البديعتين ، وقد أخذتُ تهزّهما في دلال ؟ . . . ها هو ذا موضوع طريف ، يمكنني أن أتكلّم فيه : حذاؤها الوردية الموشى بالذهب . . . أبدأُ بإطرائه ، ثم بإطراء ذوقها في اختياره . وبعد ذلك أسألها عن ثمنه . . . وهكذا . . . ولكن أليس من قلة الذوق أن أبدأُ حديثي معها بالحذاء ؟ . . . أكاد أختنق . . .

وسمعتها تقول وهي تصب « الشمبانيا » في كأسى :

أعجبتك الليلة رقصتي ؟

وشربتُ هذه الكأس دفعةً واحدة ، ثم رفعتُ رأسي ، وقد شعرت بالنار تتقد في عيني ، وبدأت أجد على الفور روح المغامرة تسري في أوصالي ، فضحكتُ ، وقلت :

رقصتك . . . يا سلام . . . شيء مذهش . . .
شيء عظيم !

وضحكتُ ، فضحكتُ هي أيضاً ، وقالت :

أصحيح أعجبتك ؟

— شيء من وراء العقل !

وعجبتُ من نفسى ، أنا الذى أتكلّم ؟ إن الجملة الأخيرة
التي قلتها تناسب اللقّام أحسنَ مناسبة ، ويجب أن أتبعها
بقولى : « وجمالك أيضاً يا روحية شيء من وراء العقل ! أنا
أحبك ، أنا أعبدك ، خبريني ماذا تريد منى أن أفعل
فأبّي مسرعاً ؟ . . . »

وأمسكتُ بطرف المنضدة ، وحدّقت وقتاً في وجه « روحية » ،
ثم وجدتنى أندفع حزين اللهجة قائلاً :

لماذا تكرهينى يا روحية ؟

— أنا أكرهك ؟

— إنك تمعنين دائماً في احتقارى !

— أما عبيط صحيح . . . أنت لا تعرف شيئاً من

أمور الحب . . .

— أمور الحب ! ؟

فجئتُ أفكّر ، أَيْكونُ ما حِسبتُهُ احتقارا ، نوعا من
الخدَعِ الغرامية المألوفة ؟ لقد سمعتُ الكثير من أساليب
الغرمين ، كلها مفارقات . فبينما يعبدُ المحبُّ محبوبته ، نراه
يُضِلُّها شتا ، ويُشخِّضُها ضربا

ومددتُ يدي لأقبضَ على يدها ، وقلت :

— إذن أنت تحبينني

فأرسلتُ ضِحكةً عابثةً ، وأجابتُ :

— أنت جدع لطيف ولكن ، خَلَّيها في سرك .

للحيطان آذان ...

وخطر الوغدُ في ذهني على القور فأقبلتُ على
زجاجة « الشمبانيا » ، وملأتُ كأسى ، ثم أفرغتها في جوفى ،
وصرخت :

هاتوا شمبانيا . شمبانيا أنا قتييل الشمبانيا

الليله دى ! !

واندفعتُ أدبرُ الخَطَطِ الجهنميّة للقضاء على « الشرييني »

وشعرتُ كأن الحجرة تدور بي

وسمعت « روحية » تقول وقد مالتُ عليّ :

إنهم يستدعونني للرقص . سأقابلك هنا بعد حين .

وخرجتُ . فتركتُ الحجرة بعدها ألقه ، وأنا أحسب نفسي سيد هذا الكون ... ودُرْتُ بعينيّ فيما حولي ، أبحث عن الوغد ، فلم أجد له من أثر ، فتأكد لي أنه هرب مني . فذهبتُ إلى مكانه الذي اعتاد أن يقف فيه ، واستندتُ إلى الحاجز الذي بجوار المسرح كما كان يفعل ، وأملتُ طربوشي ، وفتلتُ شاربتي ، ثم أخذتُ أرمقُ الناسَ بنظرات الاحتقار !

ولما ظهرتُ « روحية » على المسرح ، ضججتُ لها بالهتاف والتصفيق ، وشرعتُ أفرضُ سلطاني على الجمهور ، فأمره بالصمت في المواضع التي أرى أنه يحسن فيها الصمت ، ثم أحسسه في المواضع التي أشعر أنها تستوجب الحماس !

... وطلبت أن يأتوني بخمر أشربها في وقفتي تلك ، فشربتُ ، ثم شربت . . . وأخذتِ الأنوار ترقص لعينيّ ، والناس يتداخل بعضهم في بعض . . . وتزاحمتُ عليّ المشاهدُ الغريبة : رأيت « روحية » تعاقرنى « الشمانيا » في الحجرة المهوذة مرةً أخرى ، وأظنني قبّلتُ يدها . . . وأذكرُ أنني

تناولت قفا الحاج « سفيطة » بصفتين ، وأخذتُ بتلايب رجلٍ
من فرقة الموسيقى !

وأخيراً استيقظتُ فإذا بي مُمددٌ بملابسى ... فى حجرة نومي !

.....

ولبثتُ اليومَ التالى مُتعباً أعانى دُواراً شديداً ، وعلى الرغم
من ذلك اعتزمتُ الخروج ، وتمضيةَ الليلةِ فى قهوة الرقص ...
ووقع بصرى على المحفظة الخاوية ، فتألمتُ ... و«روحية» ! ... إنها
تنتظرنى ولا شك . . . ستبحث عنى . . . ابتسامتها لى . . .
ملاطفاتها إياى . . . القبلةُ التى طَبَعْتُها على يديها . . .
و«الشمانيا» . . . والضجيج . . . وهذا الانتصارُ العظيمُ الذى
أحرزته على « الشريينى » . . .

وخرجتُ مهرولاً إلى صديقِ كريم !

.....

لقد دَهَمَتْنِي مصيبةٌ كبرى ، فلم أجد سواك مُنقِداً لى
منها . . . سَيُقَضَى على شرفى . . . ثِقْ أن مالك فى أمان ،
وسيردُ إليك فى القريب .

.....

وخرجتُ وجيبي عامر ، وتوجتُ من ساعتى إلى قهوة الرقص ،
وقضيتُ ليلةً صاخبة . . . زجاجات « شمانيا » و « كونياك » . . .
الحجرة المعهودة ذات المِنضدة والمقعدَيْن . . . و « روحية »
بابتسامتها الجذابة وحديثها الطلي . . . والمسرح . . . والأنوار . . .
والهتاف . . . وقبلة اليدين . . . والنار التى تتأجج فى جوفى . . .
كل ذلك و « الشريبنى » مُخْتَفٍ كأن الأرض قد بلَعته !

.

. وِبِئْتُ حِصَّتِي فى منزلنا لأختى . . . وتناقلتُ علىَّ
الديون ، وأنا لا أقطع عن الذهاب إلى قهوة الرقص ومقابلة
« روحية » ، كأن حبي لها قد تحوَّلَ إلى جنون ؛ جنون
ثائر كأنه بركان ، لا أستطيع ، مهما أحاول ، أن أخمد منه اللهب ؛
بركان يلتهمنى جسما وعقلا وروحا . . . غرام أهوجُ شَرِير
أخزاني وأذلتنى !

ولما سُدَّتْ فى وجهى الشُّبُل ، ولم يعد فى استطاعتى الحصول
على مال ، شكوت لـ «روحية» حالى ، أسترحتها ؛ فظهر «الشريبنى»
فى ذلك الوقت ، وشمخَ بأنفه ، وتعالى بصوته ، ونظر إلى

حِذائِهِ الضَّخْمِ الثَّقِيلِ ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى وَفِي لَحْظَةٍ وَجَدَتْ
نَفْسِي طَرِيحًا فِي خَارِجِ الْمَكَانِ !

.....

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ ، انْتَقَلْتُ مَعَ أُخْتِي إِلَى
الرَّيْفِ - مَوْطِنِنَا الْقَدِيمِ - فَقَضَيْنَا شَهْرًا اسْتَطَاعَتْ أُخْتِي
أَثْنَاءَهُ أَنْ تَقْضِيَ بَعْضَ دَيُونِي . وَكَانَتْ لَا تَزَالُ تَعْطِفُ عَلَيَّ
وَأَنْتَهَى إِلَيَّ أَنْ وَظِيفَةً خَالِيَةً فِي السُّودَانِ ، فَلَمْ أُتَرَدِّدْ فِي
التَّقَدُّمِ لَهَا إِنَّهَا فَرْصَةٌ تُبْعِدُنِي عَنِ مِصْرَ ، وَوَسِيلَةٌ تُسِينِي
مُخَازِيًّا فِيهَا !

وَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ طَلْبِي ، وَأَخَذْتُ طَرِيقِي إِلَى السُّودَانِ ،
وَقَدْ أَقْسَمْتُ أَلَّا أَعُودَ إِلَى الْقَاهِرَةِ مَا دَامَتْ هَذِهِ الرَّاقِصَةُ
حَيَّةً تُرْزَقُ !

*
* *

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ ، فَبَرِئْتُ مِنْ دَائِي الْوَيْلِ ، وَلَمْ تَعُدْ تَخْطُرُ لِي
« رُوحِيَّةٌ » بِفِكْرٍ . وَطَابَتْ لِي الْإِقَامَةُ فِي الْخَرْطُومِ ، وَاسْتَقَدَمْتُ
أُخْتِي ، ثُمَّ تَزَوَّجْتُ مِنْ سُوْدَانِيَّةٍ مَلِيحَةٍ ، فَأَعْقَبْتُ لِي ذُرِّيَّةً
صَالِحَةً ، أَفَاضْتُ عَلَى حَيَاتِي نُورًا جَدِيدًا

خمسَ عَشَرَ عاماً في السودان تغيرت حياتي أثناءها كلَّ التغير ،
فأصبحتُ رجلاً رزيناً عاقلاً ، معروفاً عند الناس باستقامتي وحي
لبتي ، وعشتُ كذلك عيشةً راضيةً لا يشوبها كَدْر .

واستيقظَ بين جوانحي بغتةُ حنينٌ غريبٌ لمصر ، إلى الوطن
الأول ، وتَحَايَلَتْ أمامَ عيني ذكرياتُ حُلُوةٍ ، وتوارَدَتْ على
ذهني وجوهٌ عزيزةٌ ، ومَنَاقِحُ حبيبةٍ . . . فاستأذنتُ في عَطَلَةٍ ،
فمنَّوني إياها ، وشددتُ الرَّحَالَ إلى القاهرة . . .

وحدث أن كنتُ مع زَهْطٍ من الأصدقاء ذاتَ مساءً ، تتناول
المِشَاءَ في مطعمٍ ، فأَجْمَعُنَا رأينا أن نقضى سَهْرَتَنَا في مكان
طريفٍ ، فاقترح بعضنا أن يكون ذلك قهوةً « المعلمِ جميعه » فوافقناه
عليها ، وأخذنا طريقنا إليها ، وكانت في نهاية « روض الفرج » .
ودخلناها ، فألقيناها قهوةً بلديَّةً حنيرةً . وبادر إلينا « المعلمِ جميعه »
بنفسه ، فاستقبلنا بحفاوةٍ ، وقادنا إلى مكانٍ حَلَفَ أنه أفضلُ موضعٍ
يُخَصُّ به دائماً ضيوفه الأعيان . . . ولم يكن في القهوة
سوى بضعةٍ أشخاصٍ تدلُّ سِمَاتُهُمْ على أنهم من الطلبة . وكان
النور ضعيفاً والجو حاراً والهواء محبباً . وتكاثر البعوض ، وبدأ
مداعباته المفقوتة ، واستحوذ علينا صمتٌ غريبٌ ، تبادلنا فيه

التشاوب ، وجعلنا نتململ ونأسفُ لِحُضورنا . . . فهَبَطَ علينا « المعلم
جميعه » ومضى يُؤَهِّلُ بنا وَيُرَحِّبُ ، ثم أخبرنا أن حفلة الغناء
والرقص ستبدأ بعد قليل .

. وأخيراً ظهرت المغنية ، ولا أدري من أين
دخلت . . . وكانت أماننا دَكَّةً عالية ، لم نُعرها اهتماماً
من قبل ، فإذا بالمغنية تعتلها هي والمواد وصاحب الرِّقِّ ، باديةً
عليهم مظاهرُ البؤس والضعفة في أشنع صورة . . . وانقضى
فصل الغناء كما بدأ ، ونحن ما نزال تشاءب ، والبَعُوضُ ما يزال
مصرّاً على مداعبته إيانا ، وإخواننا الطلبة « يَقْرُقِرُونَ » اللَّبَّ
ويتضحكون . ولم أسمع إلاّ مرتين أو ثلاثاً آهة الاستحسان ،
سمعتها من شخص يلوح لى أنه من عمال القهوة ، وكانت
آهاته كالخشرجة . . . وأفسحوا أماننا محلاً للرقص ، ورنّت ضِحْكَةٌ
نِسْوِيَّةً ضعيفة ، ما كدت أسمعها حتى خَفَقَ لها قلبي ، واهتزَّ فيه
شعور غامض عُرِيب . . . وأحسستُ أن شخصاً يقتربُ من
مائدتنا ، ويضع عليها خَفَنَةً من اللَّبِّ ، ثم سمعته يصيحُ
بالحاضرين أن يتأهبوا ليشاهدوا دَوْرَ الرقص العجيب ، فالتفتُ
إليه من غير وَعْيٍ ، وعرفته على التوّ . . . ثم نكَّستُ رأسي ،

وقد خيّل لي أنه شيخُ الماضي خارجاً من قبره يتكلم ! ... وظهر
غيرَ بعيد منا رجلٌ طويلُ القامة ، بطربوش مُعَوَّج ، ظاهر عليه
التهدم والرثاثة ، وأسند جسمه إلى دَكَّةٍ هناك ، وأخذ يرمقنا
بنظراته البغيضة ، فما إن رآني وعرفني ، حتى أدار وجهه
عني ، واندفع يَفْتِلُ شاربه بِشِدَّةٍ !

... وظهرت الراقصة ، وأخذت ترقصُ على نغمات «التخت»
والمُطَيَّب يصفق ، ويدعو الناس إلى الصمت والسكون . وكانت
تدنو منا وهي تبسم في مَدَلَّةٍ كأنها تستجدي ، وتجتهد في
لَفَتِ نظرنا إليها باذلةً في ذلك كلِّ جهد ، وكانت هزيلةً مَكْدُودَةً
رثَّةً الملابس ؛ فجعلت أراقبها ، وعلى فمي ابتسامة مُرَّة ، وقد
غَشِيَّتَنِي موجةٌ من الأسى الدفين . وانطلق خيالي يَسْبَحُ في
أعقاب الماضي ، فإذا مواكب خمسةَ عَشَرَ عاماً تتدافع أمام
عيني . . . يا لله من تلك الذُّكْرِيَّاتِ البعيدة ! . . . إنها ما
زالت كامنة مستقرّةً في الأعماق ، ولكنها حُطَّامٌ بالٍ ، مهدمٌ
بعضه على بعض . . . ظلال قائمة ، باقية بالرغم من زوال
أجسامها . . . ها هي ذى الحجرة الحقيمة ذات المنضدة
والمقعدين . . . زجاجات « الشميانيا » . . . النار المشبوبة في

جوفى . . . الابتسامة الرائعة التى تَبْرُقُ دائماً أمامى . . .
الصَّخْبُ والمُتَأَفُّ . . . الأنوار . . . رنة الصَّنَجَاتِ . . .
ضحكها . . . قبة الـيـدِينِ . . . كأنى بالماضى يحيا ثانية
ويتجسَّمُ !!

.....

واقتربتُ منا، وابتسامتها الذليلةُ ما تزال تتراءى على شفّتها .
وأخيراً عرَفْتَنى ، فظهر عليها الدَّهْشُ والارتباك !

وبعد انتهاء دَوْرِ الرقص ، أخذتُ تحومُ حول مائدتنا تَتَمَسَّحُ
كالهرة الجائعة ... فدعوتهُ للجلوس ، فلبّيتُ مُسرعة ؛ وطلبتُ لها
طعاماً وشراباً ، فأقبلتُ عليهما بشرهٍ عجيب . وكانت ثيابها المهلهلة
تَشِفُّ عن سيقانٍ هزيلة ذاباة !

لم تُشِرْ إلى الماضى بكلمة قط ، وكنتُ أعجَبُ وأنا
أبادها الحديثَ كيف مرَّ بى زمنٌ أحببتُ فيه هذه المرأة حُبَّ
عبادة . . . ثم كيف نَقَمْتُ بعد ذلك عليها . . . هذه مخلوقة
لا تستحقُّ من العواطف أكثرَ من الشفقة ، الشفقة الساذجة
العابرة !

ولما همتُ بالخروج ، دستُ في يدها مقداراً من النقود ،
ولم أقفُ لأستمعَ إلى كلمات الشكر التي انطلقتُ تَعَمَّرُنِي بها .
وحانتُ منى التفاتة إلى « الشرييني » مُنَا فِيسِي القديم ، فوجدته
مُتَّكِئاً على الحائط ، وقد صرف عن الناس وجهه ، وهو
ما يزال يَفْتِلُ شاربَه . . . !

الشيخ أبو جابر

المخ . . .

دخل « نصار افندى » قهوة « السلام » وهو ساخطٌ متبرّم ، يُغمغمُ بسبابِ مكتوم . ورمى بجسمه الهزيل على المقعد ، وطلب قهوةً وماء . وكان ممزّقَ الثياب ، أغبرَ الوجه ، مصاباً بجروح في رأسه وجبهته ويديه ، ما زال الدم يتسائل منها . له هيئةٌ بغيضةٌ لا يشفعُ لها ما يبدو عليه من دلائل الألم والهزيمة المنكرة !

وسعى إليه الخادم بما طلب ، ووقف أمامه برهةً يتأملُه ، ثم قال :

ألم تكن تستطيع أن توفّر على نفسك ما أصابك اليوم من أذى ؟ لقد سمعنا بما شجّرَ بينك وبين السامسة في قهوة « زاخوره » . . . الكل يلقون التّبعةَ عليك !

— على أنا ؟ . . . الله يسامحهم . بالطبع أنا المحقوق ما دام يدعى ذلك « غزّال » و « مرزوق » و « الفوّال » . . . من يقدر أن يكذبهم ، وهم « البلطجية » الكبار ؟ !

وبلّ منديله القدر بالماء ، وأخذ يمسح به جروحه الدامية .
قال الخادم :

اسمع يا نصار . . . الحق هو الحق . . . لا بلطجية ولا
خلافه . الكل يقولون إنك أردت أخذ بيعة القطن منهم
لمصلحة رئيسك « طناشي » .

فأجابه « نصار » وهو منهمك في مسح جروحه :
وهل في ذلك ما يؤاخذ عليه ؟ المسألة مسألة شغل يا سيد
عبد العظيم . . .

— المسألة مسألة شغل طبعاً ، ولكن ليس بالفش والفساد
والخدعة يا نصار افندى !

فرفع « نصار » وجهه إليه ، وقال :
أنا الذي أؤس وأؤش وأؤادع . . . أنا ؟ ! أما هم فملائكة ،
ليس في أعمالهم ظلم ولا عدوان . . . اعمل معروف ، اقصر
لسانك . . .

فانصرف الخادم إلى عمله !
وزفر « نصار افندى » زفرة عميقة . . . إنه يشعر الآن
وهو في جلسته بأن عظامه دقت دقا ، فلم يبق لها كيان مستقل

في جسده ، جمد تلك المعركة الحامية . إنها أول هزيمة يناله بها أولئك الزملاء الأشرار . كانوا من قبل يقتصرون على تحقيره والنيل منه بألوان الشتائم والسباب ؛ ولكنها كلام والسلام ... أما الضرب وما إليه من صفع ورَّكل ، وما يجره من إراقة للدم ، ورَّمي على الأرض ، وتمريغ في الوحل ، وتمزيق للثياب ؛ فهذا هو الجديد الذي لم يكن في الحسبان !

وأخرج « نصار » لفافة هزيلة ، وانطلق يدخنها ، وأخذ يعرض حياته أمام عينيه مفكراً . لقد مرَّتْ به عشرون عاماً في خدمة « الخواجه طناشي » ... عشرون عاماً وحياته على ما هي عليه ، ضائعة بين الأسواق والمحلج وقهوة « زاخوره » ، وبين مكتبه حيث يجمع الأرقام وي طرحها ويضربها ، إلى ساعة متأخرة من الليل ، في ضوء مصباح أعمش . عشرون عاماً وهو مندوب لمحل « طناشي إخوان » لم يَرُقَ دَرَجَةً ، ولم ينل عِلاوة . ويا ليتة كان مندوباً بحق ... لم يعقد بنفسه صَفَقَةً واحدةً لبيع أو شراء ، ولم يذيل بِإمضائه المتشعب المتوى صكاً واحداً ، ولم يعمر جيبه — الخالي دائماً — بتأمين ما . إن هذه الأوراق البهيجة اللامعة ، ذات العشرة جنيات ، والخمسين جنياً ، لم تمسها يده مرّة واحدة في حياته

كلها . . . كيف إذاً تسامحوا معه ، فنحوه لقب « مندوب »
على حين أنه لا يُشارك مندوبي الشركات والبيوت التجارية في
شيء إلا في هذا المعطف الطويل الأصفر ، وهذا الطربوش
الناصل الذي يُحوّل صاحبه أن يحمل لقب « افندى » !
وما قيمة هذا اللقب عنده ؟ أو قد عصمه مرة واحدة من لسان
رئيسه السليط ؟ الناس جميعاً شهود لـ « طناشى » بنبوغ وتفنن
في السب والشتم لا يقلُّ عن نبوغه وتفننه في إدارة متاجره . . . !!
إن أفعال هذه الأعوام العشرين كانت تتجمع في هذه اللحظة ،
وتنحط كالجبل على كتفيه . . .

وأخذ « نصّار افندى » يجمع بِخِصْرِهِ الحُثَالَةَ الراسية من
القهوة ، ويلعقها في تَأَنٍّ وتبَلُّدٍ ، وقد شرع الباعه الجوّالون
يفدون على « قهوة السلام » فيبعثون فيها بصياحهم وإلحاحهم
شيئاً من النشاط . كان يراهم داخلين وخارجين ، فلا يكثر
لهم ، ولا يُعيرهم من نظراته أدنى التفات . . .

ومرّاً بجانبه في ذلك الوقت قَزَمٌ أجردٌ ، تملأ وجهه التجاعيد ؛
يحمل على رأسه وعاء من الصفيح ، ويصيح منادياً في صوت
مُخَنَّثٍ كرية : « المنخ العجّالى » !!

وقد نشأ بين هذا القزَم وبين « نصار افندى » لون من
سوء التفاهم، لم يلبث أن انقلب إلى كراهية صامته . في حين
أنه لم يسبق بينهما تعارف منذ هبوطه الزقازيق ، والتحاقه بمحل
« طناشى » . . . هناك تنافر رُوحى قائم بينهما ، فكلُّ منهم
يُبغِضُ صاحبه لله في الله ! . . . تمثل هذه الكراهية في النظرات
المتَّعِدة التي يتبادلانها ، وفي التهكات المرّة التي يتراشقان بها . . .
منذ عشرين عاماً يصيح ذلك الصوت الخنث ملجأ مُتَعَنِّتاً
بالمخ العجالى ؛ و « نصار » لا يستطيع أن يُصمَّ أذنيه
عنه . . . منذ عشرين عاماً يصبح « نصار افندى » ويُسمى
يُتبعه هذا الهيكل الآدمى البشع ، وهو غيرُ واجدٍ سبيلاً
إلى الفكّك منه !

والعجب أن « نصار افندى » سمِعَ عندَ قدومه مدينة
« الزقازيق » طبيباً يقول مؤكّداً : لن يعيشَ هذا القزَمُ أكثرَ
من عشرين يوماً . . . وهما قد مرت عشرون عاماً ، مات
في أثناءها ذلك الطبيب ، وتفتتت عظامه واندرت ، وهذا
القزَم قائم كالمقرب اللدوغ ، يتسم للناس عن أسنانه
البارزة النَّخْرَةَ !

وأى مَخَاحِرِ تلك التي يبيها ؟ إنه يؤكد أنها صابحة ،
 ولا جدال في أنها كذلك ، صابحة بدمها الحار ، كأنها مَخَاحِرُ
 القتلى معروضة على المشرحة . . . وهذه القطعان المحتشدة
 من الذباب تسير مُحَلِّقَةً على الوعاء ، تَتَّبِعُهُ في سيره كأنها
 سِرْبٌ من الطائرات يتأثر جيشاً ، ثم تراها وقد ألهبها الجوع
 فحطت على الغنيمة ، وأخذت تُعَبِّ من دما ما شاءت أن
 تُعَبِّ ؛ و « نصار أفندي » يرمقها بعينه ويدمدم : قذارة !
 قذارة ! . . . ثم لا يعتم أن يتلظَّ بريقه ، إذ تمثل له هذه
 المِخَاحِ مقلبة على النار ، ينبعث منها دُخَانٌ شَهِيٌّ الرائحة !
 يا لله ! . . . شَدَّما يَمُوت « نصار أفندي » هذا
 القزَمَ الوَرِقَ !

لقد جاء القزَمَ إلى « القهوة » ثم خرج ، ثم عاد ثم
 خرج ، وها هو ذا يحضُرُ الآفَ للمرة الثالثة . . .
 و « نصار أفندي » قابعٌ في مكانه لم يتحرك !
 إن « نصار أفندي » ليتحمَّلُ اليوم أدهى مصيبة يَنكُبُها
 القَدَرُ ، بل إنه ليرحبُّ بها ، ولكنه لا يطيق رؤية هذا القزَمَ
 وهو يختلف إلى القهوة هاتفاً بالمنح المَجَالِي . . . !

وزفر زفرةً ملتهبة ، وأخذ يتململ في مقعده ، وجعل يضرب
المائدة بقبضة يده . . . وما إن مرَّ بجانبه القزم يتخلَّع في مشيته
ويطلق من حلقه الصوت المُنخث ، حتى قفز « نصار افندى »
من مكانه . . . وأمسك بِمِخْناق القزم وهو يصيح فيه :

اغرب من هنا ، أحرّم عليك أن ترينى وجهك حيث
أكون . . . أفهمت ؟ اختف عن ناظرى في الحال !

ولم يدع للقزم فرصةً يردُّ فيها عليه ، أو يحقق رغبته في
الاختفاء ، بل وثب « نصار افندى » إليه وأنشب فيه أظافره ،
وانهال عليه لكمةً ورَكلاً ، ثم أخذ يطوّح به يَمَنَةً وَيَسْرَةً ،
لا يكاد يرفعه حتى يهوى به !

وكان كلما تمادى ، شعر بانتعاش ومرح . . . يا لله !
كيف عزبت عن باله قبل اليوم تلك الفكرة الموقّعة ، فكرة
ضرب هذا القزم اللعين ؟ ما أطيب هذه الراحة التي تغمر
نفسه ، وما أوفر هذا السرور الذي يفيض على روحه !

إنه ليستقبلُ الحبسَ بل الشنق ، راضياً ، في سبيل هذا العمل
المجيد ، وهذه البطولة الخالدة !

... .. وتكاثرت الناس عليهما ، وأخذوا يُفرّقون

بينهما !

وجلس « نزار افندى » على رصيف القهوة يلهث ، وهو
أغبر معفر ، دامي الوجه ، أشعث الرأس ، ممزق الثياب ؛
والناس من حوله يُسألونه عما حدث ...

فأخرج إقافةً من عُلبته ، وأشعلها في تمهل ، وبدأ يدخنها ،
ثم وضع رجلاً على رجل ، وقال :

لا تُلَقُوا بالآ لهذا ... إنه أمر تافه ... كثيراً ما اضطررتُ
إلى تأديب أمثال هذا النذل بهذه الطريقة ... !!

صفحة	المصادر التي ألهمتنى الكتابة
٣
٢٥	فرعون الصغير
٤٣	غريم
٦٥	حزن أب
٧٥	غانية الحانة
١٠١	انقلاب
١١٥	أركان الضوء
١٢١	عزرائيل القرية
١٣٣	أفديك بالروح
١٥٥	رجل رهيب
١٨٣	زمان هنا
١٩٩	غرام قديم
٢٢٣	المنح العجالي

تحت الطبع للمؤلف .

نداء الجاهل

رواية قصصية

المطبوع للمؤلف :

أ - في العربية :

الوثبة الأولى

الحاج شلبي

أبو علي عامل أرتيست

الأطلال

الشيخ عفا الله

قلب غانية

فرعون الصغير

نشوء القصة وتطورها

ب - في الفرنسية :

غراميات سامي

Les Amours de Sami

Les ecrivains Contemporains 26 Rue des Tournelles. Paris IVe.

ج - في الألمانية :

مجموعة قصص (اختارها وترجمها المستشرق السويسري
الدكتور ويدمار) .

Mahmüd Taimür

von Dr. G. Widmer

Arthur Collignon, Buch handlung für Kunst und Wissenschaft

G. m. b- H. — Berlin N W 7.

عنوان المؤلف :

محمد تيمور

٦ شارع الأمير حسين بالزمالك

القاهرة . مصر